

الدكتور شوقي أبو خليل

بلاط الشهداء

بقيادة

عبد الرحمن الغافقي

قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا

تَكُونُ فِيسَهُ



شوقي أبو خليل

بلاط الشهداء «بواتيه»

بقية

عبد الرحمن الغافقي

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

تصوير ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م
عن ط ٢ - ١٩٨٠ م

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تليكس Tx FKR 411745 Sy



تَصَدِير

★ « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله
أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ، ولنبلونكم
بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال
والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين
إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه
راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم المهتدون »

البقرة : ١٥٤/١٥٧

بسم الله ، له الحمد والشكر وحده ، وصلى الله على من
لا نبي بعده •

إن أول واضع لخطة الفتوحات الإسلامية في أوربة هو
الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، إذ ندب عبد الله بن سعد بن
أبي سرح لفتح بلاد شمال افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه
على جيوش جرجير والي « سبیطلة » من قبل البيزنطيين ، فندب
عبد الله بن عبد القيس ، وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ،
وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالمسير الى الأندلس ، وكتب لهما
في ذلك ، تلك الوصية الرائعة التي يقول فيها : « إن القسطنطينية
تفتح من قبل الأندلس ، وإنكم إن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون
شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر^(١) » •

وقد اتخذ ولاية شمال افريقية ، وقواد أجنادها هذه الوصية

(١) النجوم الزاهرة ، ج : ١ ، ص : ٨٤ ، الكامل ، ج : ٣ ، ص : ٤٧ •

الطبري ، ج : ٤ ، ص : ٢٥٣ •

نبراساً لسياستهم الإسلامية التي يسرون عليها ، فهي تعني حصار القسطنطينية من البر الأوربي ، وتفيد في اضعاف المدد الممكن للقسطنطينية عند حصارها .

وأول أمير شرع في إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية ، الأمير حسان بن النعمان ، وذلك بعد أن دان له شمال افريقية بالطاعة ، فقد أنشأ بفتاء قرطاجنة — في تونس — دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من سكان مصر ، وسار على منهاجه موسى بن نصير .

وكان بعدها أن اجتاز طارق بن زياد — بتكليف من ابن نصير — بجيوشه أرض العدو الى الأندلس ، حيث فتحها الله له ، ووصل المسلمون إلى حدود فرنسة ، ثم عبروا الحدود فاتحين ، وجرت معارك كثيرة ، كان أهمها « بلاط الشهداء » .

ولعل التاريخ الإسلامي كله لم يقدم إلينا حادثاً جليلاً ، كان له من الخطورة والأهمية وبعد الأثر ، ما كان لموقعة بلاط الشهداء ، فلو لم يرد المسلمون في سهل « تور » لما كانت ثمة أوربة نصرانية ، بل لعله ما بقيت نصرانية على الإطلاق ، ولكان الإسلام يسود أوربة ، ولكانت أوربة الشمالية تموج اليوم بأبناء الشعوب السامية ذوي العيون الدعج ، والشعور السود ، بدلاً من أبناء الشعوب الآرية ، ذوي الشعر الأشقر ، والعيون الزرقاء .

والمصادر العربية عن المعركة قليلة مقتضبة ، فلم يذكر الواقدي والبلاذري والطبري وهم من أقدم رواة الفتوح ، شيئاً عن المعركة ، ومن هنا جاءت صعوبة الكتابة عن بلاط الشهداء

وبطلها عبد الرحمن الغافقي • وابن الأثير لم يذكر في حوادث سنة
١١٣ هـ / ١١٤ هـ سوى تكرار رواية ابن عبد الحكم ، وهي
مقتضبة أيضاً •

فالروايات العربية موجزة ، وهذا يدل على فداحة الخطب
الذي أصاب الإسلام في سهل تور ، على عكس الروايات النصرانية
التي تفيض في تفاصيل الموقعة ، وتشيد بظفر شارل مارتل — أو
« قارلة » كما تسميه المراجع العربية — وترفع من بطولته ، وتذهب
الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأبحار المعاصرين ، في
تصوير نكبة المسلمين الى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من
المسلمين في الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، في حين
أنه لم يقتل من الفرنجة سوى ألف وخمسمائة ، ومنشأ هذه
الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو الى البابا جريجوري الثاني
يصف فيها حوادث الموقعة ، وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها
التواريخ النصرانية المعاصرة وكأنها حقيقة يستطيع العقل أن
يسيعها ، بيد أنها لم تكن سوى خرافة محضة •

ففي « بواتيه » لم يُسَحَق الجيش الإسلامي بالمعنى
المفهوم للهزيمة الساحقة ، ولكنه كان ارتداداً ، بل انسحاباً منظماً
من تلقاء نفسه ، فقد لبث يقاتل طوال المعركة الفاصلة حتى المساء ،
محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ، والدليل على
هذا القول ، رهبة الفرنجة من مطاردة المسلمين ، وحذرهم من
اللاحاق بهم عقب بواتيه ، وتوجسهم من كون انسحاب المسلمين
خدعة حربية ، وخطّة مبيّنة ، ولو أن الجيش الإسلامي انتهى

الى انقاص - كما تصوره الرواية النصرانية الكنسية - لبادر الفرنجة إلى مطاردته وتجهاز عليه ، ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة الى حد يخيف العدو ويرده .

إن أفدح خسارة في بواتيه كانت استشهاد الغافقي ، لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع بهيبته وقوة إيمانه ، وشخصيته الملتزمة بإسلامه الصافي أن يجمع الإسلام في الأندلس ، فكان مقتله في هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الاسلام ، ولمشاريع الخلافة في افتتاح أوربة .

- استشهد عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء ، فكان الانسحاب الإسلامي .

- استشهد وهو يحاول رأب الصفوف التي تصدّعت عندما هاجم الفرنجة الغنائم التي كانت مكدّسة خلف الصفوف .
ومع هذا كله ، فإن على ذاكرة التاريخ أن لا تنسى أولئك الذين بذلوا وأظهروا كل ضروب الفداء والتضحية والصدق والاخلاص والبرسالة والشجاعة ، ولكنهم أصبحوا قادة بلا جنود فهزموا ، أو جنوداً بلا قائد فأثروا الرجوع . وفي أغلب الأحيان ، فإن ذاكرة التاريخ تذكر بالفخر والاعجاب الأبطال الذين صنعوا الانتصارات ، وتجعلهم في مركز الصدارة ، ولذا فهي تخلّد الغافقي بطلاً عظيماً ، وإن لم يكن قد حقق النصر في بواتيه ، وذلك لما أبداه من الطموح والصدق في نشر الدعوة الإسلامية ، مع ثقته بنفسه وجيشه ، وحزمه في أموره ، ولكنه استشهد في المعركة الفاصلة وأصبح الجند بلا قائد .

ولو أنه انتصر في بلاط الشهداء لعُتت شهرته الخافقين ،
ولأسبحت الدنيا منذ ذلك الحين مسلسة ، ويكفي العافقي فخراً
أنه بالاسلام ، وبالاسلام وحده ، أوصل جيوش المسلمين الى
ضواحي باريس ، ويكفي الاسلام فخراً ، أنه أوصل العريضة
والعروبة الى قلب فرنسة ، فلولا الاسلام لبقيت قبائل العرب في
جزيرتها — ولا ندري الى متى ! — تحت وصاية الفرس والرومان .
والحقيقة التي لا جدال فيها . . انه في سهول « تور — بواتيه »
فَقَدَ المسلمون سيادة العالم بأسره ، وتغيَّرت مصائر العالم
القديم كله ، وارتد تيار الفتح الاسلامي أمام الأمم الشمالية ، كما
ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية ، وأخفقت بذلك
آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، وإخضاع أوربة
لصولة الاسلام .

لأمر أراده الله ، لم ينتصر المسلمون في بلاط الشهداء
« بواتيه » في القرن الثامن الميلادي ، إنها مشيئته جل شأنه ،
ليثبت للدنيا بأسرها أن الإسلام قوته ذاتية ، كامنة فيه ، وسيعم
نوره أوربة فيما بعد بواتيه بقرون ، فها هو اليوم « الدين
الزاحف » على عواصم الغرب في القرن العشرين ، وبشائره تجعل
النتائج المتوقعة محققة .

نجد المسلمين من أبناء أوربة دعاة إسلام ، والمنارات تتعالى
بالله أكبر في عواصم ومدن الغرب ، ليشهد العالم أن الإسلام
ينتشر بلا سيف ، لأنه الأمل المنشود ، فيه التوازن الرائع بين
الدين والدنيا ، والروح والمادة ، والعقل والقلب .

لقد وعى برناردشو حاجة أورة الى هذه المعاني ، فقال :
ما أحوج العالم الى . . بل مثل محمد ليحل مشكلاته . . . ولن
ينقضي هذا القرن العشرون إلا وأورة يعمها الاسلام .

في فرنسا وحدها اليوم أربعة ملايين مسلم من أبنائها
الأصليين ، غير الجاليات الإسلامية ، وهذا الرقم يتضاعف لزيادة
الدعاة من الذين أسلموا .

وفي أمريكا اليوم ملايين المسلمين ، وهذا العالم الأمريكي :
« Michal H. Hart » يجمع أعظم شخصيات العالم ، منذ بدء
العصور التاريخية ، وحتى عصرنا الحالي ، وينتقي منها مئة شخصية
فقط ، لها أثرها العالمي في شتى مجالات الحياة ، ويرتبها في كتابه :
« المئة : The 100 » بحسب أهيتها وأثرها في البشرية ، فكان
سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الشخصية الأولى في الكتاب « فهو
الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بتفوق على الصعيدين الديني
والمدني » وهذا مصداق لقوله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ،
معرفاً بقيمة ما جاء به من عند الله سبحانه .

يقول عز وجل في محكم التنزيل : « ليظهره على الدين كله »
وهذه الآية الكريمة لم نشهد بعد تحقق معناها الشامل ، ونرى
اليوم بوادر شمولها ، ولا بد وأن يشهد جيلنا ذلك ، ولو بعد حين .
فإلى الجزء السادس من هذه السلسلة ، إلى بلاط الشهداء
وأحداثها ، والدرس المستفاد منها ، على بركة الله .

شوقي أبو خليل

ص ٦٢٢٢ :

دمشق - سورية

المسلمون في فرنسا

★ « استتباب الفتح في الأندلس ، مهد
لنقل ميدان الجهاد وراء جبال البرانس » .

فتح المسلمون الأندلس فتح استقرار وإقامة . فطبعت معالمها
باحتضارة العربية الإسلامية ، وفكّر موسى بن نصير في عبور
جبال البرانس^(١) ، لبسط السيادة الإسلامية على فرنسا ، ومن
ثمّ الاتجاه شرقاً لفتح القسطنطينية ، معقل الروم ، ولكن الخليفة
الوليد بن عبد الملك خشي من هذه المغامرة ، إذ لم يحدث تاريخياً ،
أن جيشاً قد اخترق أوربة من الأندلس حتى شواطئ البحر
الأسود دفعة واحدة ، فاستدعى الوليد موسى وطارقاً .

ولما كانت ولاية السمع بن مالك الخولاني^(٢) عام ١٠٠ هـ ،
الذي يشبهه بعمر بن عبد العزيز في إسلامه وتقواه وخلقه ، والذي
وصفه ابن الأثير بأنه من أفاضل عرب إفريقية ، ومن خيرة الولاة

(١) أو جبال البرينية ، وفي العربية البرت أو البرتات أو البرانس
Pyrenees ، أي « الابواب » ، ومن ثم فقد سميت أيضاً جبال الابواب ، ويقال
بها « الحاجز » .

(٢) اختاره عمر بن عبد العزيز : « لمعرفته هذه الشخصية التقية النقية
المجاهدة الباسلة الممتلئة إيماناً وحماسة ورغبة للعمل الخير والجهاد الفاتح ، وأحسن
الحليفة ابن عبد العزيز الاختيار ، فحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن
منهج الرفق » . التاريخ الأندلسي ص : ١٨٩ .

الذين تولوا أمر الأندلس ، وعاد الحماس الى الجند الإسلامي لمعاودة الغزو في غاليا^(١) ، فنقل مركز الخلافة إلى قرطبة^(٢) ، لاعادة التنظيم الاداري ، ولتأمين الجبهة الداخلية ، استعداداً للفتح خلف جبال البرانس .

سار السمع إلى أرض غاليا ، وفتح اقليم سبتمانيا^(٣) ، واتخذ أربونة^(٤) قاعدة لعملياته الحربية في فرنسة ، فأعاد ترميم الحصون ، ودعّمها بجند مسلمين ، وتتبع مجرى نهر الجارون ، واتجه غرباً حتى وصل طولوشة عاصمة اكويتانيا ، التي قاومت حتى وصلتها الامدادات ، وأخذ السمع يشد من أزر جنده المسلمين ، ويتلو عليهم بروح مؤمنة مستتيرة صادقة ، قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

ولكن السمع أصيب بطعنة عميقة بالغة في المعركة التي دارت على أسوار طولوشة عام ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، فقت ذلك من عضد الجند المسلمين ، فارتدوا جنوباً عن طولوشة ، التي تعتبر أول نكسة للمسلمين في أرض غاليا « فرنسة » .

(١) غاليا ، أو غالة ، أو الارض الكبيرة تعني فرنسة حالياً .

(٢) كانت العاصمة طليطلة ، ثم أصبحت اشبيلية زمن عبد العزيز بن موسى ، ونقلها السمع الى قرطبة ، التي استمرت عاصمة الاندلس حتى نهاية الدولة الاموية في الاندلس .

(٣) سبتمانيا : منطقة ساحلية من البرانس غرباً الى مصب نهر الرون شرقاً ، واسمها اليوم « الرفييرا » ، وهي تطل على البحر المتوسط جنوبي فرنسة ، عاصمتها أربونة .

(٤) الى اليوم في المدينة شارع يحمل اسم « السمع » .

وسقط السمع شهيداً ، وانسحب المسلمون بعد أن فقدوا
مأندهم المفوار البطل ، وكان عبد الرحمن الغافقي أحد جنود
السمع في المعركة ، فأجمع الجيش المسلم على اختياره للقيادة ،
ورأى من الحنكة أن يرتد الى الجنوب ، ولكن حزنه الأليم على
مصرع السمع ، واستشهاد رفاقه جعله يفكر جدياً في الانتقام
لمصارع الأبطال ، واستئناف الغزو والهجوم ، وكانت تلك ولاية
عبد الرحمن الأولى ، التي لم تدم إلا بضعة أشهر .

عين عامل افريقية يزيد بن أبي مسلم عنبسة بن سحيم الكلبي
عام ١٠٣ هـ / ٧٢١ م أميراً على الأندلس . فقضى عنبسة السنوات
الأربع الأولى من إمارته في تنظيم أمور الأندلس وتهديتها ، وانهاء
الخلافات العصبية ، ثم واصل حروبه في غاليا ، وسار على الساحل
حتى وصل نهر الرون ، بعد أن مرّ من مدن : أربونة ، ومونبلييه ،
ونسه . وأبنيون ، وفي وادي الرون فتح مدن : فالنس ، فيني ،
لون . شالون ، حيث سار قسم من الجيش شمالا باتجاه ديجون ،
ولانجر ، وقسم باتجاه أوتون ، ووصل مدينة سانس .

اكتسح المسلمون بقيادة عنبسة حوض الرون ، بزحف ظافر
علق عليه مؤرخون معاصرون له ، بأن الله قذف في قلوب الكفار
الرعب ، فلم يتصدّ أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الأمان^(١) .

فتح المسلمون المناطق الفرنسية الجنوبية والشرقية ، ولم
يجدوا مقاومة إلا في مدينة سانس — الواقعة على بعد ثلاثين

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٠٥ ، عن : غزوات العرب لارسلان .

كلوا منرا فقط جنوبي باريس - والتي كانت عاصمة اقليم يوند ،
وفيهما تصدى إيبون أسقف المدينة للزحف الإسلامي ، وكان قد
استعد له من قبل ، فحصد المدينة ، وحشد مواطنيه ، فهبوا معه
لحماية مدينتهم ، ونجحوا في إيقاف الزحف الإسلامي (١) .

أدرك غنيسة بعد هذا الزحف المظفر ، الذي أوصله الى
ضواحي باريس ، أنه توغل أكثر مما ينبغي ، فخشي أن يقطع العدو
خطوط تموينه ، أو طريق عودته ، وبخاصة أنه سمع بانبعثات
العصية في الأندلس من جديد ، ووقع خلاف فيما بين العرب
والبربر .

وهذا الذي شعر به غنيسة ، كان حدثاً صحيحاً ، فبينما كان
في طريق عودته داهمته جموع كبيرة من الفرنجة ، فالتحم معهم ،
وأصيب بجراح بالغة في شعبان ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م ، استشهد على
أثرها ، فعادت بقية الجيش بقيادة عذرة بن عبد الله الفهري إلى
أربونة .

« ينبغي أن نلاحظ أن حملة غنيسة لم تكن في الحقيقة غير
غارة بعيدة المدى ، ولو كان غنيسة على نية الفتح الثابت ، لأتم
الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات في بعضها
على عادة العرب في فتوحهم ، وربما كانت نيته من أول الأمر أن
يقوم بحملة تشبه حملة عقبة الكبرى ، غارة بعيدة المدى تشق
البلاد شقاً ، وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها ... »

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٤٧ ، ارسلان و غزوات العرب ، ، ص : ٧٩ - ٨٠ .

ومهما دكن من الأمر فان عنبسة بن سحيم الكلبي ينفر د بين
العامين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الاسلام الى
قلب أوربة الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم
آخر « (١) » .

خلف عذرة الفهري عنبسة في حكم الأندلس ، وبقي من
شوال ١٠٧ هـ ، وحتى ربيع الاول ١١٠ هـ ، فواصل حروبه في
فرنسة . فاقترح سبتانية مرة أخرى ، ودخل حوض الرون .

ومما يذكر أن المسلمين في هذه الفتوح ، أو السرايا ،
ما تعرضوا الى كنيسة أو دير ، غير أن المراجع النصرانية الأوربية
أطلقت العنان لخيالها ، فكلما وجدت ديراً قد احترق ، أو كنيسة
تخربت في هذه الفترة من الزمن ، نسبت ذلك الى المسلمين ، مع
العلم أن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصاري
بعضهم مع بعض في هذه الجهات من غاليا على وجه الخصوص .

من المؤرخين الأوربيين الذي اتهموا المسلمين بالتخريب
والاحراق المؤرخ « رينو » ، مع أنه يعلم أن « كلوفس » أنزل
بالكنائس والأديرة في جنوبي غاليا وفي بوجونيا ، وفي أقطانية
من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف ، وليس من المعقول أن
المسلمين لم يكن لهم هم في غاراتهم في غاليا إلا تخريب الكنائس
والأديرة واشعال النار في المدن، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وافريقية
والأندلس ، وهي كلها غاصة بالكنائس والأديرة ، وما إليها من

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٤٨ .

المؤسسات النصرانية ، فلم يحرقوا . ولم يخبروا ، فمن عجب أن ينقلب حالهم إذا عبروا الى غاليا . فيتحولوا الى برابرة مخربين لا يكادون ييقون على شيء^(١) !!

ويعلق الدكتور حسين مؤنس في فجر الاندلس على ماسبق قائلاً : « الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول ، فليس من الجد في شيء أن يقال إن العرب لم يفعلوا في غاليا غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخبروا كنيسة أو يحرقوا ديراً ، وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غاليا في ذلك الحين ، من الفرنجة وقوط غربيين ، وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم ، لتبيننا أن المسلمين كانوا أعظم حضارة ، وأبعد عن النهب والتخريب ، ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر ، فلن نجد بين من ظهوروا على مسرح الحوادث في غاليا خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي ، رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسماح بن مالك . أو عنيسة بن سحيم ، أو عبد الرحمن الغافقي » .

المسلمون على عكس الوندال الذين سبقوهم ، وبالعكس شارل مارتل « قارلة » وبين وشارلمان فيما بعد ، فهؤلاء هم الذين

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٥٨ . ويرى د. عمر فروخ في : « العرب والاسلام في الحوضين » ص : ١٣٣ : « إن عددا من الكنائس والأديرة - وخصوصا تلك التي كانت مبنية خارج أسوار المدن ككنيسة مدينة « تور » مثلاً - كانت في الحقيقة قلاعاً وحصوناً ، وكان الفرنجة يقاتلون العرب من ورائها ، فليس بدعاً إذن إذا هدمها العرب في أثناء المعارك » .

نهبوا الكنائس ، واستولوا على كنوزها وخربوها بعد معركة
بلاط الشهداء !

★ وصل عبد الرحمن الغافقي الى ولاية الأندلس ثانية ،
وموقعة طولوشة ترك أثراً عميقاً في نفسه ، وأخذ منها درساً كبيراً ،
هو الحيلة والحذر ، كما أشعلت الحماس في قلبه للثأر لما أصاب
المسلمين من هزيمة .

استعد الغافقي استعداداً كبيراً لغزو فرنسة ، وأعلن الدعوة
للجهاد في سبيل الله ، وأعلن هذه الدعوة في افريقية ، كما أعلنها في
الأندلس ، فتدفق عليه المتطوعون من كل ناحية ، وتجمع لديه عدد
ضخم من المجاهدين ، بلغ ما بين سبعين الى مائة ألف رجل ، وبدأ
تحركه بعبور جبال البرت في أوائل سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م (١) .

وفي غاليا استعد دوق اكويتانيا ، واسمه « أودو » للقاء
المسلمين ، وهو الذي دأب على حماية دوقيته بشتى الوسائل ،
وأهمها إثارة الخلاف بين المسلمين عرباً وبربر في الأندلس .

ورأى عبد الرحمن الغافقي أن يطهر الجبهة الداخلية قبل أن
يشتبك مع أعداء الاسلام في موقف حاسم ، فبعث بكتيبة من
جنوده الى عثمان بن أبي نسعة ، بقيادة ابن زيان ، فهرب ابن أبي
نسعة مع أنصاره الى الجبال ، فتبعه ابن زيان وقضى عليه
وعلى ثورته (٢) .

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٠٨ .

(٢) سننناش « خرافة مونوسة » في خاتمة هذا الكتاب ، كما وردت في الكتب
المعتمدة ، ونفند ما نسج حولها من قصص خيالية غرامية .. وأن لا علاقة لها بأحداث
ابن أبي نسعة .

جسع عبد الرحمن الغافقي المجاهدين في مدينة بنبلونة ،
وخرج باحتفال مهيب ليعبر جبال البرانس في أوائل صيف عام
٧٣٣ م من ممرات رونسفال ، واتجه شرقا في جنوبي غاليا ، ليضل
الفرنجة عن وجهته الحقيقية ، فأخضع مدينة أرل التي خرجت على
طاعة المسلمين ، ثم اتجه الى دوقية أقطانيا ، فانتصر على الدوق
أودو انتصارا حاسما ، وتقهقر الدوق من عاصمته بثر دال ، ومضى
الغافقي في طريقه متتبعا مجرى نهر الجارون ففتح بر دال ، واندفع
شمالا في السهل المتسع الذي يحده شمالا نهر اللوار ، وجنوبا
نهر الجارون ، ووصل الى مدينة بواتيه .

أصبح عجز الدوق أودو واضحا في مواجهة المسلمين ،
فاستصرخ « شارل مارتل ، قارلة » حاجب قصر الميروفنجيين ،
وكان صاحب الأمر والنهي في دولة الفرنجة .

لبي شارل النداء ، وكان قبلها لا يحفل بحركات المسلمين في
جنوب فرنسة ، بسبب الخلاف الذي بينه وبين دوق أقطانيا الذي
كان سببه طمع شارل بالدوقية ، وبذلك توحدت قوى النصرانية
في غاليا للوقوف في وجه المسلمين ، ورحب شارل بالفرصة ليسيظ
تفوزه على أقطانيا وأراضيها الواسعة ، بعد أن شعر بالخطر
الإسلامي ، حين غزا المسلمون بورجونيا ، وهي داخلة في بلاده ،
وصعدوا حتى قاربوا اللوار (١) .

اجتمعت الفرنجة الى شارل مارتل ، وقالت له : ماهذا الخزي

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٧ .

الباقي في الأعقاب !؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من مطلع الشمس،
حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها
من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم ، وكونهم لا دروع
لهم • فأجابهم :

« الرأي عندي ألاّ تعترضوهم في خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل
يحمل ما يصادفه وهم في اقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة
العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى
تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في
الرئاسة ، ويستعين بعضهم على بعض ، فحينئذ تتمكنون منهم
بأيسر أمر • » •

قال المقرئ : فكان والله كذلك ، بالفتنة التي طرأت بين
الشاميين والبلديين^(١) ، والبربر والعرب ، والمضريّة واليمنية ،
وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من
الأعداء^(٢) •

وأنهى شارل حروبه مع السكسون والبافارين ، وتنبه لفتوح
المسلمين الذين اجتاحتهم معظم أقطانها ، وأدرك أنهم لن يقفوا عند
حد اخضاع أقطانها •

* * *

(١) المقصود بالبلديين : العرب القدماء الذين جاؤوا من الحجاز ، وأسهموا في
الفتح الاول ، واستقروا في جنوب اسبانيا ، وعرفوا بالبلديين تمييزا لهم عن الهجرات
التي طرأت على الأندلس بعد ذلك •

(٢) نفع الطيب ، ج : ١ ، ص : ١٢٩ •

قائد بلاط الشهداء عبد الرحمن الغافقي

✱ قائد رشحه إيمانه وامكاناته القيادية،
وعبقريته الحربية للقيادة ، ولكن الظروف
لم تتكافأ مع عبقريته العسكرية .

★ أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم
الغافقي ، نسبة الى غافق ، وهي قبيلة من الأزد ، وقيل : بل هو
غافق بن الحارث بن عك^(١) بن الحارث بن عدنان .

تابعي من أفذاذ الرجال ، جمع الى الشجاعة والاقدام العدل
في الأحكام ، والسهر على مصالح العباد ، وبعد النظر في السياسة،
ويذكر ابن بشكوال أنه روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

أخباره قليلة جداً ، لا تتناسب مع الدور الكبير الذي قام به
في تاريخنا الإسلامي ، ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء ، التي ختمت
حياة الغافقي ، كانت أليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام
عنها قدر الطاقة ، وأصاب الإيجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا
الاكتفاء بمجرد الإشارة اليه ، مع عظيم تقديرهم له^(٢) .

رحل الى افريقية ، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك

(١) عرف بالعكي نسبة الى بني عك ، وغافق بطن منهم .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٦١ ، الاعلام ، ج : ٤ ، ص : ٨٤ - ٨٥ ، وتاريخ

غزوات العرب لارسلان .

— الخليفة الأموي — بدمشق ، وعاد الى المغرب ، فاتصل بموسى ابن نصير وولده عبد العزيز ، أيام اقامتهما في الأندلس .

ظهرت براعته في انقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة ، عقب مقتل السمح بن مالك الخولاني في طولوشة ، وتولى على أثر معركة طولوشة « تولوز » سنة ١٠٢ هـ ، فانتقل الى أربونة ، فانتخبه المسلمون أميراً عليها ، وأقره عامل افريقية^(١) ، ولما نشأ خلاف بينه وبين عنبسة بن سحيم ، عزل عبد الرحمن ، وولي عنبسة مكانه . فصر عبد الرحمن مدة يغزو مع الغزاة ، الى أن ولاه هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس سنة : ١١٢ هـ ، فطاف أقاليم الأندلس ، ينظر في مظالم الناس ، ويقتص من القوي للضعيف ، ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ، ويستبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة ، متأهباً لفتح بلاد الغال أو غاليا : Gallia — Gaule ، والتي عرفت عند المسلمين باسم : « الأرض الكبيرة » ، وهي فرنسة حالياً .

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وافريقية الى مناصرته ، فأقبلت عليه الجموع المؤمنة المجاهدة ، فازدحمت بهم قرطبة قاعدة الأندلس أيام عبد الرحمن^(٢) .

جمع القلوب ، وساد الوئام في جيشه ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً بعد فتن ، فقد كان عادلاً حليماً نقياً ، رحب به جميع سكان الأندلس ، حاكماً بارعاً ظهرت مواهبه الحرية في

(١) عامل افريقية كان يعينه الخليفة ، ويعين هو عادة والي الأندلس .

(٢) وهو الذي بنى قنطرة قرطبة المشهورة في سعتها وعظمتها وأبراجها .

غزوات غالبا ، حكيماً قديراً في شؤون الحكم والادارة مصلحاً
مستنيراً ، يضطرم رغبة في الاصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاية
الأندلس ، وأقدرهم جميعاً •

رحبت الأندلس قاطبة بتعيين عبد الرحمن واليا عليها ، فعامل
المسلمين والمسيحيين على السواء كما أمر الإسلام من التسامح
وحفظ الأموال والأعراض ، ولم يخرج قط في معاملة المسيحيين
عن العهود والعقود معهم •

وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وكان يمرن المجاهدين على
استعمال السلاح ، ويثير فيهم نخوة القتال ، وجمعت هيئته كل
القبائل ، لأنه كان سليماً من النزعة العصبية التي ابتلي بها غيره ،
ومن دلائل ذلك ، أن عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية ،
المتعصب لقيسيته ، أقامه على الأندلس وهو يماني من غافق ، لذلك
ساد الوئام في الادارة والجيش ، وعني باصلاح الجيش ، وتنظيمه
عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً
جديدة مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة مؤمنة من الضباط
العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية •

وصف الحميدي عبد الرحمن بالصلاح ، والسيرة الحميدة ،
والعدل وحبه الشديد للجهاد في سبيل الله^(١) ، وتحدثت المصادر
الأوربية النصرانية عن شجاعته النادرة ، ومقدرته الحرية العظيمة •
وأورد ابن عبد الحكم رواية تدل على أن عبد الرحمن كان

(١) جذوة المقتبس ، ص : ٢٧٤ •

مسلماً مسلم الإيمان ، حريصاً على أصول الشريعة ، لا يحفل في
 سبل ذلك بغضب من ييدهم الأمر ، يقول ابن عبد الحكم بعد
 ذلك عن إحدى غزواته ، وكان فيما أصاب عبد الرحمن رجلاً
 مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج
 الحصى . وقسم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه . فبلغ ذلك
 عبده بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية ، فغضب غضباً شديداً ،
 وكتب إلى عبد الرحمن كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن
 مجيباً : « إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن
 المسفين منها مخرجاً (١) » .

رضي الله عن عبد الرحمن وأرضاه ، لئن كان عنبة من طراز
 معه من نافع ، تستهويه الغارات البعيدة المدى ، والضربات المدوية ،
 فإن عبد الرحمن من طراز حسان بن النعمان ، وطارق بن زياد ،
 من مراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ،
 « وحمدون إلى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها ، لكي يتم
 المسح . وتدخل البلاد في حوزة الاسلام (٢) » .

ورحم الله شهيد بلاط الشهداء ، شهيد بواتيه ، رحم الله
 الأمر عبد الرحمن الذي رشحه إيمانه وامكاناته القيادية ، وعبقريته
 الحربية إلى الامارة ، ولم يرشحه نسب أو حسب ، ولكن الظروف
 لم سداً مع تلك العبقرية ، وستبقى سيرته ، وسيبقى ذكره في
 الحالدين ، مع الذين صدقوا ما عاهدوا عليه الله .

(١) فتوح البلدان ، ص : ١١٧ ، وفي « الكامل في التاريخ » ، ج : ٤ ، ص : ٢١٥ .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٣ .

المسلمون قبيل المعركة

✱ المسلمون في جهادهم لهم نيات تغني
عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة
الدروع .

فكر عبد الرحمن الفاققي ، وخاف من لهو جنده بالغنائم
الكثيرة ، التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وفكر جدياً في
حملهم على تركها في أرضها ، لئلا تشغلهم عن القتال ، فتكون وبالاً
عليهم ، لكنه لم يشأ وهو في مأزق كذلك المأزق أن يغيظهم ويخسر
بذلك توحد قلوبهم ، وبقي واثقاً بشجاعتهم ويمن بقيته في القتال .

لقد رأى عبد الرحمن وأولو الحزم من زملائه ، أن يحملوا
الجند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ،
ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند ، واستسلموا
لرأي المستهترين ، واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن
المالعة المستمر (١) .

والحق أنه عندما وقف المسلمون في وجه الفرنجة ، لم يكن
سكان أوربة يتمنون خسارة المسلمين وهزيمتهم ، لقد تمنى قسم
كبير من سكان غاليا انتصار المسلمين ، بعدما سمعوا بتحسين حال
الإسبان بعد دخولهم في حوزة المسلمين الفاتحين ، حيث انتقلوا من

(١) مواقف حاسمة ، ص : ٦٣ . لعل الفاققي سمح بنقل الغنائم مع الجيش ،
عسى أن يكون ذلك حافزاً له للدفاع عنها ، بعد أن صارت كثيرة ، يستقتل أصحابها في
سبيل الحفاظ عليها ، ولكن الجند أخطؤوا عندما دافعوا عنها وحرصوا عليها ، أكثر
من دفاعهم عن النصر وحرصهم عليه .

**الحرر والمصائب المالية الباهظة ، الى الحرية والعدالة والطمانية
على ارواحهم واموالهم ..**

★ موازين القوى :

١ - عدد جيش الفرنجة أكبر من جيش المسلمين : فبينما كان الفرنجة سيلا من الجند المتدفق ، لم يكن الجيش المسلم يزيد من سبعين ألف مسلم في أصح الروايات ، وقد يصل الى مائة ألف في روايات أخرى ، كان جلهم من البربر ، لأن كثيرين من عرب ام روم والأندلس ، كانوا إذ ذاك في شغل بما انصرفوا اليه من المازعات العvisية من ناحية ، ومن الاستقرار في القرى والاشتغال بالزرع من ناحية أخرى ، وهذا لا يعني عدم وجود أعداد من العرب مع الفاطقي ، فقد كان معه معظم اليمينيين لأنه يمني ، ولأن غالبه سكان نواحي اقليم سرقسطة كانوا يمنية ، ومنهم كانت غالبه العرب المحاربين في ناحية جبال البرانس ومايلها (١) .

٢ - موقف الفرنجة الاستراتيجي أجود وأفضل ، وبخاصة مددهم للسواقي ، وألفتهم للتحرك فيها ، ومعرفة دروب المنطقة ، مع مدره على القتال في جوشات مطير ، تعودته جسومهم ، وأرض موطنه ألفتها خيولهم .

٣ - الفرنجة مددهم - البشري والتمويني - قريب ، بينما المسلمون على بعد يجاوز ألف كيلو متر عن عاصمة الأندلس ، كما أنهم بعيدون مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الأموية ، ويكفي أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق وجبال البرانس ونهر اللوار ، ليعلم أن الجيوش الإسلامية المحاربة في نواحي غالبا كانت تقوم في الواقع بمغامرة أقرب الى قصص

(١) جبر الاندلس ، ص : ٢٦٢ .

الاساطير منها الى حوادث التاريخ ، لأنها كانت في وضع لا تستطيع معه أن تحصل على امدادات من الجند ، أو العتاد من مركز الخلافة . ولا من عامل الأندلس في قرطبة ، لأن عدداً عظيماً من عرب الأندلس لم يستقروا في العاصمة ، بل تفرقوا في نواحي الأندلس ، وعمل بعضهم بالزراعة ، فكان الوالي لا يستطيع استخدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصابات التي حاربها الإسلام قد توزعتهم ، وفرقت بينهم ، فلم يعد من الميسور لعامل لأندلس أن يجمع قوات محترمة إلا من بني عصبته^(١) .

ومع أن النقطة الأخيرة لم يكن لها أثرها الكبير في تكوين جيش الغافقي ، لأن الغافقي كان محبوباً لبعده عن هذه العصبية . بسبب إيمانه وفهمه السليم لمبادئ الدين الحنيف ، غير أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق الجيش ، واختلف فيما بينه اختلافاً كبيراً . أدى الى انسحاب المسلمين جولة . ولو أنهم كانوا يبدأ واحدة لارتدوا بعد استشهاد قائدهم الى أقرب مركز لهم . ليستجمعوا قواتهم . ويضموا صفوفهم من جديد ، كما فعلوا بعد الهزائم التي جرت عليهم في إفريقية .

٤ - الغنائم التي حملها الجيش الاسلامي :

بالت مراجع النصرانية في وصف أعمال السلب والنهب التي قام بها المسلمون ، ولكن الحكم المنطقي السليم ، أن المسلمين حملوا بعض الغنائم ، ولو أحسنوا لبغثوا نفرا منهم ليودعها « أربونة » أو « برشلونة » ، حتى يطمثوا عليها ، وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، وينتهي اشتغال فكرهم بها ، ولكنهم حرصوا عليها

(١) فجر الأندلس ، ص : ٢٦٨ - ٢٦٩ .

أكثر من حرصهم على النصر ، وانقلبت الغنائم الى ثقل يرهقهم ،
أضعف حركتهم ، فكانت الغنائم سبب هزيمتهم ، لأن عدوهم
— وقد استشعر هذا الحرص منهم — عرف كيف يستغله لصالحه ،
فكان السبب القريب المباشر للهزيمة .

ورفض أحد المؤرخين المعاصرين ، بدافع من غيرته على
الاسلام ، أن يجعل الغنائم سبب الهزيمة المباشر ، وقال : كيف
يحمل الجيش الاسلامي هذه الغنائم الثقيلة المعوقة ، وهو أمر لم
نألفه منه في حملاته السابقة في الارض الكبيرة ، وهو يعلم مقدماً
أنه ذاهب للقاء حاسم ينتهي فيه نشر الاسلام وإعلاء كلمة الله في
تلك البقاع . ولو حدث اجتماع مثل هذه الغنائم لأودعها مدنا سبق
له فتحها ، فكيف يجتمع ذلك له وقد مر في فتوحه — قبل هذه
الحسلة — في أراضٍ فقيرة وأهلها معدمون . في حين لم نسع أو
نألف له ذلك الاهتمام والاسلوب في عمليات جهاده — وهي
كثيرة — في الأرض الكبيرة قبل الغافقي^(١) ؟

ونحن نرى أن الخطأ أو الخلل إن وقع يجب أن يذكّر
كسا هو للعة والعبرة . فخلل بلاط الشهداء هو خلل أحد يتكرر
في سهول « تور — بواتيه » ، وهل يجرؤ مؤرخ أن ينفي مخالفة
الرمادة لأمر النبي ﷺ ، ونزولهم لجمع الغنائم في أحد ؟

أما مرورهم في أراضٍ فقيرة الثروة . وأهلها معدمون نتيجة
لفقر أرضهم . فهذا خطأ جغرافي . فجنوب فرنسة من الأراضي
الخصبة ، خصوصاً على ضفاف نهر الكارون وفروع نهر الوار ،
ومعروف أن مدن المنطقة غنية بنفائسها !

(١) التاريخ الاندلسي . ص ١٩٨ - ١٩٩ .

الفرنجية

سار مارل

✱ جنود اجلاف يعاربون شبه عراة ،
يتشعون بجلود الحيوانات المفترسة ، يرسمون
للوحشية البهائية صورا مزعجة حمراء .

الفرنجية : شعبة من أولئك البربر الذين غزوا روما ، وتقاسموا
تراثها ، وحلوا في ألمانيا وفرنسة . وتعني كلمة « الفرنجية » الحر ،
وربما كان هذا الوصف يدل على الأقوام التي كانت تنزع الى
الاستقلال عن سلطة روما ، والخروج عن طاعتها .

حكم منهم البيت الميروفنجي من سنة : « ٤٨١ م وحتى
٧١٦ م » ، وكان الحكام الميروفنجيون في آخر حياتهم كما وصفهم
المؤرخ أينهارت : إنه لم يكن للملك شيء في المملكة سوى
اسمه ، وذوائب شعره المرخاة ، ولحيته الطويلة ، حتى إذا جلس
الواحد منهم على عرشه ، أخذ يلهو بإدارة شؤون الدولة لهو
الصبية ، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف المسالك ،
ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوه بها صاغرا مأمورا ، ولم يكن للملك
ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة فيها مسكنه الضئيل
حجبه ، وحاشيته القليل عددها ، فإذا اقتضى الأمر سفرا ، ركب
عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف ، تجرها الأبقار ، ويسوقها
فلاح من الفلاحين ، وإذا جاء الى القصر ، أو ذهب الى الاجتماع
السنوي العام ، سار موكبه في هذه الهيئة ، على حين أصبح رئيس
البلاط مسيطرا في شؤون الادارة والحكم ، مهيمنا على جميع
المسائل السياسية الداخلية منها والخارجية^(١) .

(١) تاريخ أوربة العصر الوسطى ، ناليف : هـ ١٠٠٠ ل فيشر ، الطبعة الثالثة ،

دار المعارف بمصر ، صفحة : ٧٠ .

لقد أحجم الفرنجة عن التخلص من البيت الميروفنجي ، لظنهم أنهم مقدسون ، ولا جناح عليهم مما ينغمسون فيه من المنكرات ، فهم منحدرون من ميروفينوس ، الذي يرجع أصله الى إله البحر العظيم ، حسبما ورد في أغاني الفرنجة القديمة !! إن حالة من القدسية حاطت تلك الأسرة الفرنجية زمنا طويلا قبل ظهور المسيحية بينهم .

ثم بدت في الأفق الأسرة الجرمانية الكارولنجية . وموطنها « استراسيا » - بلجيكا حاليا - ، وأهم شخصيات هذه الأسرة « بين » و « دوق أرنوف » ، ثم ما لبث بين أن أصبح رئيساً للبلاط ، أو محافظ القصر ، سنة ٦٢٢ م ، فزوج ابنته لابن أرنولف ، فكان من نتيجة المصاهرة : « بين الثاني »^(١) ، الذي تولى رئاسة البلاط في اوستراسيا « بلجيكا » سنة ٦٨١ م ، وهذا هو أبو شارل مارتل أو « قارلة » والجد الأكبر للإمبراطور شارلمان ، وشارل هذا اتخذ الألمان والفرنسيون بطلا قومياً ، دون أن يكون في الحقيقة ألمانياً أو فرنسياً . فهو أوستراسي جرمانى لحما ودما .

انزعجت أوربة انزعاجاً صارخاً لتقدم الجيوش الاسلامية ، وفزع زعماء المسيحية ، فأرسلوا صيحاتهم الصليبية في آفاق أوربة ، وبذلوا أقصى ما يقدرون عليه لإشعال نار الكراهية للإسلام ، وتأکید العداء لرجالها ، وكان ملك الفرنجة ضعيفاً عاجزاً كما أسلفنا ، بينما يتولى حاجب القصر « شارل مارتل . أو قارلة » قيادة أموره ، فتجمع حوله الصليبيون ، وقدموه قائداً للنصرانية^(٢) .

(١) بينا ابنة بين تزوجت انسجيزول . فكان بين الثاني أو دوق .

شارل مارتل .

(٢) مع الأبطال ، د . د . محمد رجب سومي ، ص : ٨٩ .

وشارل مارتل هذا ، أو شارل المطرقة ، أو قارلة ، تولى الحكم من دون الملوك الميروفنجيين ستا وعشرين سنة ، وقال لقب المطرقة لشدة ما أنزل بالكنيسة الكاثوليكية في غاليا من صارم الضربات التي استلزمها فساد رجال الدين في عصره ، على أن بعض السر فيما استقام له من الفتوح ، إنما يرجع الى جنوده الفارعين من الاوستراسيين الذين لم تفسدهم حياة المدن .

ولما بلغ شارل مارتل نبأ قدوم الجيش الاسلامي اتخذ الأهبة ، فلما قدم أودو حاكم دوقية بردال « بوردو » يستغيث ، لبي شارل النداء^(١) ، وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرّبة للظفر ، وجنود متطلعة للقتال .

ولم يكتف شارل مارتل بما لديه من الفرصجة في غاليا ، بل بعث يستقدم جنداً من حدود الراين . . فأتته فجدات من جنود أجلاف أقوياء ، يحاربون شبه عراة في مثل هذا الجو البارد ، يتشحون بجلود الذئاب والنمور ، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق اكتافهم العارية ، يرسمون للوحشية البدائية صوراً مزعجة حمراء .

لقد اجتمع لشارل مارتل بذلك جيش كثيف ، قادر على الثبات والمنازلة ، ضاقت بجموعه الكثيفة سهول فرنسة ، فتقدم الى شمال بواتيه في اتجاه تور . وفي تور التقى جيشان يختلفان عَدَدًا وعُدَدًا ، ولغة ودينًا ، وهدفًا وحضارة .

(١) اسنفاث أودو بخصمه شارل مفضلاً ان يجتاح الفرنجة املاكه ، على ان ينتزعها منه المسلمون ، ولبي شارل النداء ، لا حبا بأودو ، ولكن طمعا في الاستيلاء على اراضيه ، وبالفعل فقد استولى عليها بعد المعركة ، كما لبي شارل خوفاً من غزو المسلمين لبلاده ، وقد باتوا على مقربة منها .

المعركة بلاط الشهداء

★ قال رينو : « إنه بلغ حماسه
المسلمين في تلك الغزوة ، ان بعض المؤرخين
شبههم بريح صرصر تقتلع كل ما حاء امامها ،
او بسيف ماض يقطع كل ما يصادفه » .

★ موقع المعركة :

أصبح الأقوال ان المعركة كانت على مقربة من طريق روماني
يصل شاتلرو Chatellerault ببواتيه . على مسافة نحو
عشرين كيلو مترا من بواتيه . في الموضع الذي يسمى اليوم :
Moussais — la Bataille . وأكد ذلك اكتشاف سيوف عربية
في الحفريات التي تمت حديثاً في الموقع المذكور^(١) .

وتسمى المعركة بالأسماء التالية : البلاط . بلاط الشهداء ،
تور ، بواتيه .

(١) ويستدل على ذلك من الآثار المحفوظة في دير « مواساك » ، انضا .

وبلاط هنا لا يعني الطريق المبلط . لكن المراد بلفظ « البلاط » في الأندلس « القصر » . أو حصن حوله حدائق تابعة له . فيقولون : « بلاط مغيث » و « بلاط الحر » ، و « بلاط يوسف » ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال .

فبلاط الشهداء معناها : « قصر الشهداء » ، مما يفيد أن مكان الواقعة كان بجوار قصر ، أو حصن كبير ، ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة (١) .

وخلاصة القول : إن المعركة حدثت قرب تور ، و انتهت قرب بواتيه .



قلنا ذكر التاريخ معركة لها ما بعدها مثل هذه المعركة ، فكان المسيحيون من جهة يذبون عن دياتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم . وكان المسلمون من جهة ثانية على اعتقاد راسخ أنهم يقاتلون في سبيل الله ، لنشر عقيدة ، ونشر إخاء ومساواة ، لتعم رسالة التوحيد أوربة كلها ، خلا من كان منهم مهتماً بحفظ الغنائم التي في أيديهم ، وخوفهم عليها من الضياع ، ولم تكن الغنيمة هدفاً للجميع ، لو كان الهدف غنيمة فحسب ، لعادوا بما أثقلوا به قبل بواتيه . وبخاصة أنهم عرفوا أن شارل مارتل قد جمع جسوعه وألب كل أوربة عليهم ، فالهدف ليس غنيمة وقد تحققت . بل فتح بمعناه الكامل .

(١) نحر الأندلس . ص : ٢٧١ .

النقى الجمعان في ١٢ أو ١٣ تشرين الاول « اكتوبر » سنة ٧٣٢ م . اواخر شعبان سنة ١١٤ هـ رابط كل منهما أمام الآخر مدة ثمانية أيام . وكان المسلمون هم الذين بدؤوا القتال . وكان الفرنجة قادمين من حروب ابتسم لهم فيها النصر . فكانت حماستهم تغلي مراجلها ، ويزيد فيهم وجود شارل مارتل . الذي كلما ظهرت ثلثة خف وسدها بنفسه^(١) ، حماسة وعزيمة .

هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل هجمات شديدة . حاولوا بها خرق صفوف الفرنجة . غير أنهم كانوا يجدون أمامهم صفوفًا أشبه بالجدران في ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حصلات المسلمين .

استمر القتال أول يوم طول النهار ، ولم يحجز بين المسلمين والفرنجة سوى الظلام . وفي اليوم التالي تجدد القتال ، ورخصت النفوس في سوق المنايا . وحمل المسلمون حصلات مستميتة . إذ لم يكونوا ينتظرون من الفرنجة مثل هذا الثبات . ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً . وبينما كانوا يضاعفون حصلاتهم . إذ أغارت فرقة من الفرنجة على معسكر المسلمين . الذي فيه متاعهم .

ولخص الدكتور حسين مؤنس المعركة بما يلي^(٢) :

تدل التفاصيل التي لدينا على أن كلا من الفريقين كان يحس

(١) من خطط خالد بن الوليد في معاركه ، بعد كان لعائد كسبه سريره الحركه مدودها بنفسه دائما ، فكلما حدث حرق سده ، وأبنا رفع صمغ أو حبل فواد .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٤ .

خطورة هذا الصراع الحاسم . فلم يشتبك الجيشان في المعركة الحامية إلا بعد بضعة أيام . ظلاً خلالها يتناوشان في اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك في قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسوييف والسكسون في اختراق خطوط العرب - المسلمين - يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد ، وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوماً عنيفاً بالحرايب ، ولكن هؤلأ ثبتوا ثباتاً فريداً ، بل بدا في بعض الأحيان - قرب مساء اليوم الثاني على الخصوص - أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم ، ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة ، فاخرقت صفوف المسلمين في موضع ، وأفضت الى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئاً عظيماً جداً ، فريع الجند الإسلامي المحارب . وخشي الكثيرون من أفرادهم أن يستولي عليها هؤلأ الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا الى الخلف ليعيدوا الأعداء عنها ، وهنا اضطربت صفوف المسلمين ، واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية ، وحاول عبد الرحمن الغافقي جهده أن يثبت جنده ، ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، وأصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيش المسلمين ..

وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهمزوا فرصة الظلام ، وتسلبوا متراجعين الى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في العشرين

من شهرين الأول « أكتوبر » سنة ٧٣٢ م ، أوائل شهر رمضان
سنة ١١٤ هـ .

وحينما أسفر الصبح نهض الفرنجة ، فلم يجدوا من المسلمين
أحدا . فتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فإذا هي خالية
منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن في الأمر
خدعة ، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر ويتهبوا مافيه ، ولم
يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، إما لأنهم خافوا أن يكون العرب
— المسلمون — قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركا ، أو لأن
« شارل مارتل » تبين مانزل بالمسلمين . فرأى أنه يستطيع العودة
الى الشمال مطمئناً الى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

اندفع المسلمون في تراجعهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت
جموعهم نحو أربونة ، وحينما أحسوا أن أحدا من النصارى
لا يتتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد .

وذكرت المصادر النصرانية الأوربية : أن فرقا من المسلمين
شردت عن الجيش فوقعت في الأسر . وهذا خطأ واضح ، فكيف
تؤسر فرق من الجيش المسلم ، ولم يلحق بهم عدوهم ؟ ما هذا إلا
من تخيلات المؤرخين النصارى ، ليظهروا عظمة نصرهم واندحار
المسلمين .



نتائج المعركة

✦ « لو انتصر العرب في تور - بواتيه ،
لتلى القرآن وفسر في اكسفورد وكمبردج » .
حيون

تعتبر معركة بلاط الشهداء معركة فاصلة في التاريخ العالمي ،
فقد ترتب عليها تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير ، قال جيبون :
« لو انتصر العرب في تور - بواتيه ، لتلى القرآن وفسر في
اكسفورد وكمبردج » .

وقارن فشر في كتابه « أوربة في العصور الوسطى »^(١) بين
انتصار الفرنجة على المسلمين ، وبين عدم استطاعة المسلمين فتح
القسطنطينية عام ٧١٧/٧١٨ م ، فقال : لو انتصر المسلمون في فتح
القسطنطينية ، لوجدوا بين مسيحي شرق أوربة مجالاً للدعوة
الاسلامية ، وذلك بالقياس الى نجاح العثمانيين في القرن الخامس
عشر ، لذلك يسهل تخيل نجاح المسلمين الديني قبل العثمانيين
بسبعة قرون ، حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من
المسيحية إلا نزرأ يسيراً ، ولا تدري من النظم والمعتقدات الدينية
إلا قليلاً ، على عكس غرب أوربة حيث اصطدم المسلمون بقوة

(١) أوربة في العصور الوسطى ، صفحة : ٦٦ - ٦٧ .

مسيحيه منظمة اركانها على شيء كثير من تراث الامبراطورية الرومانية وجبروتها القديم ، ولو نم لهم النصر فرضاً في تور ، لقتل بينهم وبين فتح فرنسة وتحويلها الى الاسلام عقبات دونها عقبات .

وهذا كلام مرفوض تاريخياً ، لأن قسماً كبيراً من سدان أوربة تمتوا انتصار المسلمين في بواتيه ، ليعمهم الرفاه . والخير . والحرية . . كما عم اسبانية بعد الفتح الاسلامي .

ومن ناحية ثانية ، في رأينا هذه المقارنة خاطئة . ومنبعها اعتزاز المؤرخين الأوربيين الصليبيين بنتيجة بواتيه . علماً أن الامبراطورية الرومانية الشرقية - خصوصاً بعد سبعة قرون - لم تقل حضارة وتنظيماً عن نظيرتها الغربية ، وإن الامبراطورية الفارسية مثلاً لا تقل عنهما حضارة وتنظيماً ، وهذا مشهور لها تاريخياً ، ومع ذلك كان الفتح الاسلامي خلاصاً لشعوبها ، وتقبّلت شعوبها ، ولم تر فيه مبدأ غريباً أجنبياً عنها . وتحولت بعد الفتح الى الاسلام ، وما زالت تعتر به الى يومنا هذا ، والتاريخ أول من يعلم أن عدداً عظيماً من العلماء الذين قاموا لشرح وتفسير ونشر الاسلام وحضارته كانوا من الشعوب التي فتحت بلادهم .

هذا . . ولم تحل صدمة بلاط الشهداء دون إعادة الكرة على فرنسة ، إذ أن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف العرب عند هذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرات ، اعقبها النصر والفتح - كما سنرى في الفصل التالي - غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع الى

أن المسلمين ارتدوا عن فرنسة . ولم يحاولوا إخضاعها إخضاعاً تاماً ، فضلاً عن أن الأحداث في هذا الجزء الغربي من العالم الاسلامي ارتبطت الى حد كبير بالأحداث التي وقعت في مركز الخلافة في شرقيه .

★ ومن نتائج المعركة :

١ - بالغ المسيحيون الأوروبيون في تقدير عدد القتلى من المسلمين ، حتى أوصلهم « فِشَر » مثلاً الى ٣٧٥ ألفاً ، نقلاً عن بولس الشماس^(١) ، وهذا بطبيعة الحال غير معقول ، فليس من اليسير وقتذاك حشد مثل هذا العدد ، أو ما يقاربه ، على كثرة الحروب في ذلك الوقت ، فضلاً عن صعوبة التسوين والمواصلات .

والجيش الاسلامي انسحب عند حلول الظلام ، وصمد حتى عند خرق صفوفه واستشهاد قائده العظيم عبد الرحمن الغافقي ، ونحن نعلم أن أشنع تمزيق للجيش ، وأكثر الدماء إراقة ، وأكثر الرجال أسراً لا يقع حين التحام الصفوف في المعركة وجهاً لوجه ، وإنما حين الانسحاب الكيفي ، حين الفوضى والذعر اللذين يصاحبان الفرار .

وذكرنا في المقدمة أن رهبة الافرنج من الجيش الاسلامي ظهرت في حذر الفرنجة واحجامهم عن مطاردة المسلمين . وتوجسهم من أن يكون انسحاب المسلمين خديعة حربية . وخطه مبيتة . فلو أن الجيش الاسلامي انتهى الى أنقاض - كما تصور الروايات

(١) فشر ، تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، صفحة ٦٧ .

الصراخه اللنسيه — لبادر الفرنجة الى مطاردته والاجهاز عليه .
لان الاجهاز على المسلمين كان غاية شارل مارتل ، وذلك لئلا تقوم
لهم قائمة في فرنسة « غاليا » ، ولكن جيش المسلمين كان ما يزال
من القوة والكثرة الى حد يخيف العدو ويردّه .

٢ — أساء شارل مارتل الى أوربة ومنقلبها الحضارى .
وكرامة انسانيتها بدافعه عنها لما سبغت حياتها . فلم اصبر
المسلمون لتخلّصت أوربة من ظلماتها وجهاليتها واسبداها .
وحطّت الاستغلال والاضطهاد . كما كانت سحلتص من عار
محاكم التفتيش السوداء فيما بعد^(١) .

فإن انتصار المسلمين في أية بقعة من هذا الكون . يعنى
انتصار النور والمدنية والمساواة والحضارة . وهذا ما كان سيكون
في فرنسة وأوربة جمعاء .

واسبانية — وهي أقرب بقعة من فرنسة — خير شاهد ، أما
قال « ول ديورانت » في قصة الحضارة : « ولم تشهد بلاد الأندلس
في تاريخها كله حكماً أكثر حزمًا وعدالة وحرية مما شهدته في أيام
فاتحيها العرب^(٢) » ؟!

٣ — اتهم المؤرخون الأوروبيون المسلمين بتخريب الكنائس
والأديرة في فرنسة . وهذه الشبهة قالها فيليب حتي في كتابه

(١) التاريخ الأندلسي ، للدكتور الحبي ، صفحة ٢٠٢ .

(٢) راجع : الحضارة في الميزان ، لارنولد توينبي ، ص ٨٦ طبع
د الباني الحلبي ، .

« تاريخ العرب » صفحة ٥٩٥ - ٥٩٦ ، قال حتي : وقد تقدم عبد الرحمن الغافقي فقطع سلسلة البرنه . ثم أخذ بوردو عنوة ، وأشعل النار في كنائسها ، وبعد أن أحرق الباسيليكا « الكنيسة » القائمة خارج أسوار بواتيه ، زحف شمالاً حتى جوار مدينة تور .

والثابت المعروف أن هدف المسلمين لم يكن حرق الكنائس والأديرة ، لأنه بمقارنة المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالبا في تلك الحقبة ، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين ، وبرجنديين ومن اليهم ، يتبين أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة ، وأبعدهم عن النهب والتخريب .

وقد أشارت النصوص التي وردت بالمراجع اللاتينية النصرانية الى أن الذين خربوا هذه الأماكن وغيرها هم الوند والوندال ، فجاء مؤرخو الكنيسة وقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم « رينو » وغيره من المؤرخين المحدثين ، مما يدل على التعسف وعدم الدقة ، ولا سيما أن هذه التسميات بعينها ، أطلقت بعد ذلك على المجرمين الذين خربوا هذه النواحي زمن شارل مارتل وبيين وشارلمان ، ولو أن « رينو » عاد بعد ذلك وتشكك في أن المسلمين هم الذين قاموا بهذا التخريب . بل إن الفرنجة أنفسهم بقيادة عاملهم الأكبر شارل مارتل « قارلة » نهبوا الكنائس ، واستولوا على كنوزها وخربوها فيما بعد وقعة تور - بواتيه^(١) .

(١) فجر الاندلس ، صفحة : ٢٥٨ - ٢٥٩ .

واللحممة .. فإن الكنائس والأديرة التي تهدمت في فرنسا،
ح - أحداً منها وفق ما يلي :

أ - إن عدداً من الكنائس والأديرة . وخصوصاً تلك التي
ثابت مبنية خارج أسوار المدن ككنيسة مدينة تور مثلاً . كانت
ولاعاً وحصوناً في حقيقتها ، وكان الفرنجة يقاتلون المسلمين من
ورائها ، فليس بدعاً إذا هدم المسلمون بعضها في أثناء المعارك .

ب - كانت قبائل البرابرة الجرمان لا تزال إلى ذلك الحين
على الوثنية . وكان القتال محتدماً بينها وبين خصومها من الفرنجة
وسواهم ، فكانت تلك القبائل تعيش في غربي أوربه . وندمر كل
شيء بما في ذلك الكنائس .

ج - كان شارل مارتل نفسه إذا هاجم أراضي خصومه
ومنافسيه . لا يتحجب من تهديم الكنائس ، مع أنه كان مسيحياً .

د - وبما أن المؤرخين الأوربيين الأوائل كانوا قسماً
ورهباناً ، فقد افترضوا على المسلمين . واتهموهم بأنهم كانوا يهدمون
الكنائس والأديرة . تأليفاً للرأي العام المسيحي عليهم ، وكانوا
أيضاً ينسبون إليهم هدم الكنائس التي كانت قد تهدمت على يد
القبائل الوثنية ، وعلى يد شارل مارتل نفسه .

هـ - وزعم مؤرخو الفرنجة أن المسلمين هاجسوا ديراً كان
فيه خمسمائة راهب فذبحوهم جميعاً . ولعمري إن خمسمائة راهب
في دير - والأديرة في كل مكان معاقل وحصون طبيعية -
لا يستطيع جيش كبير أن يبلغ إليه ، ثم إن ذبح خمسمائة راهب

لم يكن ميسوراً في زمن كانت الحرب فيه تعتمد على عدد المقاتلين، وعلى قوتهم البدنية ، ومناعة مراكزهم في الدرجة الأولى (١) .
وعلى الاطلاق لم يُعْرَف عن المسلمين خلال فتوحاتهم الواسعة شرقاً وغرباً ، أنهم اعتدوا على أديرة ورهبان . إلا في أرض غاليا ، فقد جاءت قرائح المؤرخين الصليبيين بذلك بعد بلاط الشهداء !؟!
ووجدوا بسبب انتصارهم آذاناً صاغية .

٤ - أسرع والي افريقية عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مدداً بقيادة عبد الملك بن قطن الفهري ، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي ، ثم بعث بخبر الفاجعة الى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٢) وما فعله ، فأمره الخليفة بغزو فرنسة وأخذها بالسيوف من كل جانب .

توجّه عبد الملك بن قطن الفهري أول الأمر الى نواحي شالي الأندلس - كما سرى - وحصّن المعقل التي ما زالت بأيدي المسلمين ، وكانت « سبتمانية » في ذلك الوقت في فوضى واضطراب بسبب الحروب المتوالية ، وانسحاب المسلمين في بلاط الشهداء ، وحاول بعض زعمائها انتهاز فرصة هذه الاضطرابات وتوزيع البلاد فيما بينهم ، بعد أن تلاشى أمر الدوق أودو ، وأدى ذلك الى صراع بينهم ، مما جعل بعضهم يرتمي في أحضان المسلمين

(١) العرب والاسلام في الحوض الغربي ، ص : ١٣٣ - ١٣٤ ، عن غزوات العرب ، ص : ٧٢ - ٧٦ - ٨٠ - ١٠٧ - ١١٠ .

(٢) الخليفة الاموي العاشر ، من : ١٠٥ الى ١٢٥ هـ ، او : ٧٤٢ - ٧٤٣ م .

خشية وقوعهم تحت سلطة شارل مارتل « قارلة » ، او سلطة الدوق أودو^(١) .

هـ - بقي أهالي جنوب فرنسة يكرهون الفرنجة رغم انتصارهم على المسلمين ، لأن الفرنجة في نظرهم برابرة ، على حين أن أهالي جنوبي فرنسة تشبعوا بالحضارة الرومانية ، وكان هناك خلاف جوهري بين جنوب فرنسة وشمالها ، فبينما تسود الجنوب حضارة البحر المتوسط اللاتينية والبيزنطية ، تسود الصبغة الجرمانية شمالي فرنسة ، وهذا سر عدم ولاء بروفانس والمواطنين فيها للفرنجة الجرمان ، وفضلا عن ذلك ، فان قارلة « شارل مارتل » عندما استرجع أملاك الكنائس والأديرة ، لم يردّها على أهلها ، بل وزعها على رجاله ، وأكثر من ذلك ، لم تسلّم كنوز الكنائس من نهب قارلة وجنوده ، مما أغضب القساوسة ، وعامة الناس .

ويفسر هذا تحالف « مورون » الذي اتخذ لقب : «دوق مرسيليا » مع المسلمين^(٢) ، وكذلك أسقف « أوكسير » وغيرها . وعلى ذلك لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئا ، بل كان قارلة نفسه لا يكتب اسمه لا باللاتينية ولا بغيرها^(٣) .

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) وكان يتحكم في أغلب اقليم بروفانس .

(٣) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٧ عن :

— Deuaesly P. 296 , Scotl I. P. 309 , Deanesly P. 286

وكذلك كان شارلمان بعده ، وموقف قارله من الكنائس وكنوزها يثبت أن موقفه موقف طاغية عسكري ، لا يفكر إلا في ملكه ، وأمواله ، وغنائمه • وليس الى الشك من سبيل في أن السمع بن مالك ، وعبد الرحمن الغافقي وأمثالهما من الفاتحين في فرنسة ، كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان يعرفه قارلة « شارل مارتل » ورجاله في مملكته ، لذلك كانت بواتيه صراعاً بين حضارة وجاهلية ، وبين نظام وفوضى ، وبين انسانية وهمجية ••• على المدى البعيد •

وهذا ما فطن اليه المؤرخون الاوريون ، قال أناتول فرانس:

« إن أهم تاريخ في حياة فرنسة هو معركة بواتيه حين هزم شارل مارتل الفرسان العرب في بواتيه سنة ٧٣٢ م ، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوربية » •

٦ — بعد بلاط الشهداء لم يفقد المسلمين جميع ما كان تحت أيديهم في فرنسة ، بل ظلت لهم أربونة وما حولها ، على أن الذي لا ريب فيه أن غزوة الغافقي هذه كانت آخر محاولة جدية قام بها المسلمون لغزو بلاد الفرنجة •

٧ — وانهزام المسلمين في بواتيه لم يكن هو الذي أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » ، وكانت الهزائم لا تعني في حسابهم شيئاً ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة في شمال افريقية ، أيام عقبة بن

لأنهم ، فلم يسمح لهم ذلك من العودة والاصرار على الفتح ، إنما الذي
أوقف هذه المسلمين هم المسلمون أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن
المسيحية . وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ ،
ومعاه النظرة الجاهلية الى الحياة^(١) .

٨ - لو انتصر المسلمون في بلاط الشهداء ، لدخلوها فاتحين
منظمين ، يريدون ادخالها في رحاب دولتهم وتحويلها الى الاسلام،
ولو استقر لهم الامر في فرنسة لاتجه نظرهم الى ماوراءها ، ومن
هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » في تاريخ النصرانية ، فقد
حالت بينها وبين الزوال حقا .

ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا في بلاط
الشهداء وأقاموا حكم الاسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن
تعود كما عادت في الأندلس ، لأن الذي أعاد النصرانية في الأندلس
انما هو عجز المسلمين عن فتح فرنسة^(٢) .



(١) فجر الأندلس ، ص : ٣٠٥ .

(٢) فجر الأندلس ، ص : ٣٠٢ .

المسلمون في فرنسة بعد بلاط الشهداء

✱ خسر المسلمون بواتيه ، وبالتالي
خسروا أوربة كلها ، ولعل الله عز وجل أراد
أن يبقى اسلام أوربة الى القرن العشرين ،
حيث يشهد العالم اليوم دخول الاوربيين الوفا
في الاسلام ، ليعلم العرب ان الاسلام قوته
ذاتية خالدة ، وانهم اقوياء بالاسلام وحده .

تحالف « مورون » دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن
الفهري والي أربونة ، وزحفا معاً وعبرا نهر الرون ، واستوليا على
« آرل » عام ٧٣٥م ، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة « فرتا » ،
وهي المعروفة اليوم باسم « سان ريمي » ، ثم تقدمت هذه الجيوش
واستولت على « أفينيون » وهي التي يسميها العرب : « صخرة
ابنيون » .

كما وصل المسلمون الى نهر « ديرانس » أحد فروع نهر
الرون ، وهو الذي تقع عليه مدينة افينيون ، عند نقطة اتصاله
بالرون ، وظل المسلمون يتحكمون في « بروفانس » أربع سنوات،
لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيها (١) .

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١١٧ ، عن فجر الاندلس ، ص : ٢٧٨ ، والعرب
والاسلام في الحوض الغربي ، ص : ٦٨ .

ورحمه شارل مارتل عام ٧٣٢ م ، واستولى على لودون
« لود » . وكان المسلمون قد تخلوا عنها بعد بلاط الشهداء ،
كما سجلوا عن برجنديا ، وفي عام ٧٣٥ م ، توفي الدوق اودو ،
ووافق شارل على أن يخلف « هينود » أحد أبناء الدوق أباه في
منصب الدوقية ، مع تبعيته لشارل ، فأقسم هينود يمين الولاء له .

اطمأن عبد الملك بن قطن الفهري الى نجاح قائده يوسف
الفهري ، فأنصرف الى تدعيم سلطان المسلمين في امارات جبل
البرانس ، لكنه لم يوفق ، فولى الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج
السلولي عام ١١٦ هـ / ٧٣٤ م . والسلولي كما وصفه ابن عذاري :
« صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو وشدة » .

لقد كان السلولي من طراز الغافقي والسمح وعنبسة ، تقوى
وحباً للجهاد ، وعدلاً وحسن سيرة ، حتى أن الروايات النصرانية
تجتمع على الثناء عليه ، ويذكر عنه ابن عذاري^(١) أيضا : أن
الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوهُ الى الإسلام ،
ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألف رجل ، مما يثبت لنا
تاريخيا ، أن عقبة السلولي ، ومن عمل تحت امرته من المسلمين
كانوا يؤثرون الرفق ، حتى مع الأسرى — وكان مصيرهم القتل في
قواعد الحرب في تلك الأيام — فكيف بأهل المدن والأرياف ، أو
الأديرة والكنائس ؟!

ومن حسن تصرف عقبة بن الحجاج السلولي ، أنه لما لم يجد

(١) البيان المغرب ، ج : ٢ ، ص : ٢٩ .

في تصرفات سلفه عبد الملك بن قطن الفهري ما يؤخذ عليه ، عهد إليه بقيادة الخيالة ، وأرسله الى الثغر ، وأخذ يعد العدة لعبور البرانس^(١) ، بعد أن اشتعل حماس المسلمين للثأر لبلاط الشهداء ، فحَصَّنوا ما بأيديهم من مدن غاليا ، وشحنوها بالمقاتلين ، ثم عبروا « دوفيني » شمال بروفانس ، وفتحوا « فالانس » على نهر الرون ، واستعادوا « ليون » و « برجنديا »^(٢) .

وجال عقبة السلولي في شرق فرنسة ، في الوجهة التي سلكها غنبة قبله ، ولكنه لم يصل الى ما وصل اليه غنبة شمالا ، وسيستشهد عقبة قرب قرقشونة ، احدى مدن سبتمانية في صفر ١٢٣^(٣) هـ .

استعد شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفنيون ، التي تعتبر مفتاح الرون ، وقرر الاستيلاء على مرسيليا أيضاً ، ليتخلص من تحكم المسلمين في جنوب فرنسة ، هذا التحكم الذي يؤدي الى ضيق اقتصادي شديد لغرب أوربة .

استولى شارل مارتل عام ٧٣٧ م على أفينيون واقتحمها بعد أن استمات المسلمون في الدفاع عنها ، ثم حاصر أربونة معقل المسلمين في جنوبي فرنسة ، وأميرها يومئذ « الهيثم » أو هرثمة كما في بعض المصادر ، ولكنه عجز عن فتحها ، إذ أسرع عقبة السلولي ، وأرسل جيشاً عن طريق البحر لنجدة أربونة ، غير أن

(١) ابن عبد الحكم ، ص : ٢٩٣ ، أرسلان « غزوات العرب » ص : ٩١-٩٢ .

(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٢٠ .

(٣) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٠٥ .

شارل مارتل باغت هذه النجدة قبل أن تنتهي للقتال ، وقضى عليها ،
ومع ذلك حسدت أربونة للحصار ، مما اضطر شارل الى الرحيل
عنها . بعد أن نازل المسلمين أياما ، أصيب له فيها رجال عديدون ،
مبغدر عليه المقام ، وخامرته ذعر وخوف من المسلمين ، فزال عنهم
راحلا الى بلده ، وقد نصب في وجه المسلمين حصونا على وادي
رودنة ، شكها بالرجال ، فصيرها ثغراً بين بلده والمسلمين^(١) .

وقبل أن يرحل شارل خرب القلاع في « نيم » و « آجه »
و « بيزي » و « ماجلون » التي تعرف باسم « ثغر المسلمين » ،
إذ كانت مرسى أمينا للسفن الاسلامية القادمة من الأندلس
وافريقية ، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الامدادات
التي تصل عن طريقها^(٢) .

* * *

وبينما تلك الأحداث تجري في حوض البحر المتوسط الغربي ،
كانت الدعوة العباسية تشغل الخلافة الأموية في أواخر عهدها ،
فلم تتمكن الدولة الأموية من بذل العناية الواجبة بهذا القسم
البعيد من العالم الاسلامي في الغرب ، وأصبح أمر الأندلس
موكولا لأمرافريقية والأندلس وامكانياتهم ، وزاد الأمر خطورة
ثورة الخوارج في افريقية عام ٧٤٠ م ، ثم ثورة البربر ضد العرب
في اسبانية وتكرارها عام ٧٤٠ ، ٧٤٧ م . كل ذلك يفسر لنا

(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٧٤ .

(١) فجر الاندلس ، صفحة : ٢٨١ ، ٢٨٤ .

ما تتابع من بعض الهزائم في فرنسة ، مما أثر على الروح المعنوية في مسلمي الأندلس •

وفي عام : ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م قامت الدولة العباسية ، وانتقلت الخلافة من دمشق الى بغداد ، مما أدى الى انقسام العالم الاسلامي •

كما حدث تغير في العالم الغربي أيضاً ، فقد زالت الدولة الميروفنجية ، وقامت الدولة الكارولنجية ، فبعد وفاة قارلة « شارل مارتل » عام ٧٤١ م ، ورثه أبناؤه الثلاثة : « كارلمان » وبين القصير ، وابن غير شرعي هو جريفو » • وساعدت الظروف بين القصير ، فانفرد بالنفوذ عام ٧٤٧ م بسبب دهائه ، وتأييد البابوية له ، فأنتهى حكم الميروفنجيين •

وعلى ذلك •• فإن الوضع السياسي في منتصف القرن الثامن للميلاد ، النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، قد تبلور عن وجود ثلاث قوى عالمية ، هي :

١ - الامبراطورية الاسلامية ، الأمويون ثم العباسيون •

٢ - الامبراطورية البيزنطية ، في شرق أوربة •

٣ - دولة الفرنجة الكارولنجية في غرب أوربة •

وخلال هذه الظروف والأحوال المضطربة في العالم الاسلامي ، قام المسيحيون في مدن سبتمانيا بمساعدة الجيش الفرنجي ، فتمكن « أنسمندس » القوطي من ارجاع المسلمين عن سبتمانيا ومدنها

عام ٧٥٢ م ، واستعاد أغلب المدن ، أما « أربونة » وهي آخر حصن فوي للمسلمين ، فقد حاصرها الفرنجة ، وطال حصارها لمناعتها ، ونسكن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين ، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها (١) .

ولما دخل عبد الرحمن الداخل الأموي الأندلس ، واستتب الأمر له عام ١٤٠ هـ / ٧٥٨ م ، التفت الى مدينة أربونة المحاصرة ، وارسل لها مددا بقيادة الأمير سليمان الأموي ، ولكن عصابات المسيحيين المنتشرة في جبال البرانس قضت على هذا المدد .

وطال حصار أربونة ، فتآمر السكان المسيحيون بها ضد المسلمين ، وقرروا الايقاع بهم ، فاتفقوا سراً مع بين القصير على تسليمه المدينة ، بشرط أن يتركهم أحراراً في مدينتهم مستقبلاً ، وقاموا على الحامية الاسلامية في أربونة ، فأجهزوا عليها ، واقتحموا أبواب المدينة ، وفتحوها لجيوش الفرنجة ، فدخلتها سنة ٧٥٩ م ، وبذلك قضى على الحكومة الاسلامية في أربونة بعد أن ظلت بها نحو أربعين سنة : ٧٢١ - ٧٥٩ م (٢) .

كما سقطت سبتمانيا بيد الفرنجة بعدها ، ولما توفي بين سنة ٧٦٨ م ، كانت جبال البرانس هي الحد الطبيعي بين مملكة الفرنجة والمسلمين في الأندلس .

حكم الفرنجة بعد بين القصير الأخوان شارلمان وكارلمان ،

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٩٠ ، وغزوات العرب « ارسلان » ، ص : ١١٢ - ١١٣ .

وبموت كارلمان عام ٧٧١ م ، حكم شارلمان مملكة الفرنجة موحدة نحو ثلاثة وأربعين عاماً ، وفي زمن شارلمان قل العمل الاسلامي في فرنسا ، مع بقاء الطريق مفتوحاً أمام الزحف الاسلامي ، وذلك من حصن سرقسطة الواقعة على نهر إيبيرة ، ومن المعاقل الاسلامية في برشلونة ووشقة (١) .

★ لقد انصرفت جهود المسلمين كلها الى الجنوب الشرقي لفرنسة والى حوض الرون ، ولو نفذوا من الغرب أيضاً من أول الأمر لسيطروا على أقطانية ، وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم ، وثبتوا أقدامهم في جنوب فرنسا كلها ، ولا استطاعوا أن يكونوا أثبت أقداما في المعارك التي هُزموا فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة ، وعند تور - بواتيه مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماماً في الركن الغربي من جبال البرانس ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جبليون ذوو مهارة حربية وجلد ، لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث اسلامي إلا هاجموه وتخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم غرة في المسلمين إلا انتهزوها ، وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من أهم الأسباب في زوال سلطانهم عن منطقة البرانس وما جاورها من الولايات الاسبانية النصرانية التي ستناوىء المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية ، ورياجورثا وغيرها . . . ولو اهتم المسلمون

(١) وهذا ما سنراه في الجزء السابع من هذه السلسلة في موقعة باب الشيزري

« ممر رونسفال » ان شاء الله .

باكسال اخضاع منطقة البرانس وتثبيت أقدامهم فيها لتسكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكان هذا أجدى عليهم من الاسترسال في مغازاة فرنسة ، لأن غزواتهم في فرنسة لم تؤتتهم أي ثمر على الإطلاق ، في حين كان تمهيد الأمر في نواحي البرانس تسهيداً تاماً يؤمن الأندلس الاسلامي ، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس في الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى في فرنسة وإيطالية^(١) .

رحم الله الحرّ بن يوسف ، والسمح بن مالك ، وعنبسة بن سحيم ، وعبد الرحمن الغافقي ، وعبد الملك بن قطن . . . وكل من استشهد من المجاهدين معهم ، لقد شعروا أنهم يقومون بفتح منظم لفرنسة ، هدفه ادخالها في رحاب الاسلام ، لا مجرد غارات سريعة بعيدة المدى هدفها غنيمة ، بل إن جهودهم كانت من أروع وأبهى الفتوح الاسلامية الحربية ، وإن تضحياتهم كانت من أغلى ماضحي في فتوح الاسلام ، وكانت أعمالهم جديرة بالاستتباب في فرنسة وادخالها في الدين الحنيف ، لو لم يكن الأندلس نفسه مضطرباً منقسماً ، ولولا البعد السحيق عن مركز الخلافة في دمشق ، حيث حرم الفتوح من توجيه الدولة ، ومن عونها السريع بالرجال . ولولا أحداث المشرق الاسلامي التي انتهت بالقضاء على الامويين وقيام دولة بني العباس .



(١) فجر الأندلس ، ص : ٢٩٤ - ٢٩٥ وما بعدها .

خَاتِمَةٌ خَرَّافَةٌ مُؤَنَّفَسَةٌ و « شَارْلُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ »

★ « لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن
واعية »

الحاقة : ١٢

★ في « روايات تاريخ الاسلام » قدّم جرجي زيدان رواية تحمل عنوان « شارل وعبد الرحمن^(١) » • والمختفحص الدارس لهذه الرواية ، يجدها رواية خيالية نسجها « جرجي » حول شخصيات لا وجود لها على مسرح الحياة ، ومن حسن الطالع أنني كتبت « بلاط الشهداء » كما جاءت في مصادرها العربية الاسلامية ، ثم عدت وتفحصت رواية « جرجي » عن شارل وعبد الرحمن ، فكانت الدراسة الثانية تنمة للدراسة الأولى ، خرجت منهما بأكثر من عشرين نقطة يمكن التحدث فيها ، مع أنني لو قلت ليس في الرواية نقطة تستحق الكتابة فيها لأمكنني ذلك ، إذ أن الرواية خيالية لا أصل لها تاريخيا ، ومع ذلك سنناقش أولا أصل فكرة الرواية التي اعتمد عليها « جرجي » ، وهي خرافة في أساسها ،

(١) سوء الطوية يظهر في عنوان الرواية « شارل وعبد الرحمن » ، لقد قدم « جرجي » شارل على عبد الرحمن ، ولا ندري لماذا ؟!

ثم نعالج — بعد تجاوز هذه الخرافة — الطعنات والشبهات التي وجهها « جرجي » في روايته لتاريخنا وإسلامنا وأبطالنا . وهذا من قبيل وضع الاصبع على مواطن الادانة ، لا مواطن الاتهام .

★ جعل « جرجي » أبطال روايته « شارل وعبد الرحمن » ، وهي جزء من سلسلة تحمل اسم « روايات تاريخ الاسلام » . على النحو التالي (١) :

١ — عبد الرحمن الغافقي : قائد الجيوش الاسلامية .

٢ — هانيء ، ولا نسب أو والد له ، وهو شخصية لا أصل لها ، اخترعها « جرجي » من فكره ، وأوكل إليه قيادة الفرسان المسلمين .

٣ — شارل « قارلة » : قائد جيوش الافرنج ، وحاكم أوستراسيا ، وشارل في الرواية — كما أوضح « جرجي » — بطل من أبطال تاريخ الإسلام !

٤ — بسطام ، لا نسب له أيضاً ، جعله « جرجي » قائداً للبربر ، وهو أيضاً شخصية خيالية ، جعلها الى جانب « هانيء » لمنافسته في حبه لفتاة يتبادل معها « لواعج الغرام » .

٥ — مريم : حبيبة هانيء ، تحمل وجه امرأة لا مثيل لجماله في العالم ، وفيها شجاعة الرجال ورقة النساء .

(١) نورد هنا الابطال كما رتبها « جرجي » في الصفحة الثانية من الرواية ، كما أوردتها دون اضافة من قبلنا ، أو حذف احداها .

٦ - سالة « أجيلا » : والسدة مريم ، زوجة رودريك
« لذريق » ملك الاسبان ، وهي بطلة في رواية تحصل اسم
« روايات تاريخ الاسلام » !

٧ - لمباجة : بنت الدوق أودو ، وزوجة لقائد بربري سابقاً ،
وهي « عل وأساس في رواية تاريخ الاسلام » !

٨ - أودو : حاكم اkitania ، ووالد لمباجة ، وكما هو ظاهر ،
أودو أيضاً بطل من أبطال روايات تاريخ الاسلام !

★ وقبل مناقشة النقطة الاولى ، نذكر هنا المراجع التي ثبتت
في الصفحة الثانية من الرواية ، والمتفحص لهذه المراجع يجدها
تمويهاً كبيراً لكذب الرواية ، وطلاء زائفاً أراد صبغ الخيال
بالحقيقة التاريخية ، فان ذكر ابن الأثير مثلاً تراه عاد اليه مرة أو
مرتين فقط ، خلال رواية صفحاتها ٣٤٣ صفحة^(١) . بينما يعود
مرات عديدة الى مراجع أجنبية ، معروف أصحابها بالتعصب
والصلبية ، والتعصب والصلبية يكفيان لمجانبة الحقيقة ، ولعدم
الموضوعية في البحث ، فهو يعتمد على : رينو ، رومي ، دوزي ،
جوبون ، فيسفوروس^(٢) .

كما تراه يعود الى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » لتثبيت
أقوال له ، كما في الصفحة : ١٤ و ٤٢ و ٤٩ .

(١) الطبعة هنا ، هي طبعة : منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر -

بيروت .

(٢) هذا لا يعني مطلقاً رفض كل مرجع أجنبي ، المرجع الاجنبي الذي يبحث في
تاريخنا ، ان اعتمد مؤلفه على مراجعنا ، او ان عرف بموضوعيته وبيحثه عن
الحقيقة ، ويبعده عن التعصب ، فلا بأس في اعتماده أبداً .

ومراجعته كما ذكرت في أول الرواية هي كالتالي :

١ - ابن الأثير ، وعاد إليه مرة واحدة فقط في صفحة : ٢٩٩ .
٢ - وذكر « جوبون » في مراجعته ، ولكنه لم يرجع إليه على الإطلاق .

٣ - أبو الفداء ، لم يرجع إليه أبداً ، فلا يعثر القارئ على أية إشارة لأبي الفداء وتاريخه « البداية والنهاية » .

٤ - رومي ، عاد إليه عشرة مرات في الصفحات : ٨ ، ١٤ ، ٣٧ ، ٦٠ ، ١١٠ ، ١٦٤ ، ٢٦٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ .

٥ - رينو ، عاد إليه تسع مرات في الصفحات : ٨ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٩٧ ، ١٠٩ ، ١٥٤ ، ١٦٣ .

٦ - دوزي ، عاد إليه مرة واحدة فقط .

٧ - المقرئ ، وعاد وذكر « جرجي » مرجعاً آخر هو « نفح الطيب » ونفح الطيب هو لمؤلفه المقرئ ، فذكرهما وكأنهما مرجعان منفصلان ، ومع ذلك .. عاد الى « نفح الطيب » مرتين فقط ، في صفحة : ٢٩٨ و ٢٩٩ لخبر واحد ، ولذكر فكرة واحدة ، هي عزم المسلمين على مواصلة الفتح في أوربة حتى يعودوا الى الشام من طريق القسطنطينية .

٨ - مختصر الدول ، لم يرجع الى هذا الكتاب أبداً .

٩ - وكذلك لم يرجع الى المرجع المدون فيسفوروس .

١٠ - كتاب « نهاية الأرب في قبائل العرب » ، عاد إليه مرة واحدة صفحة : ١١ فقط ، ليذكر أن عبد الرحمن الغافقي من قبيلة بني غافق ، وهي من القبائل اليمنية •

١١ - ثم عاد وذكر من المراجع « رينو ورومي » معاً ، وقد ذكر اقربلاً •

١٢ - البيان والتبيين للجاحظ ، عاد إليه مرة واحدة صفحة ٤٤ فقط ، ليذكر ان في جملة جيش الاسلام جنداً من البربر ، وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والاقباط والانباط وغيرهم ، ويتبعها بقول الجاحظ : « وفيهم من لا يزال على اليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو المجوسية ، وإنما يتظاهرون بالاسلام » • وهذا كلام مرفوض كلا ، لأن المسلمين لا يتعاملون مطلقاً مع وثنية أو مجوسية ، ولا يعترفون بهما في الأصل ، لأنهما ليستا من أهل الكتاب •

هذه هي كل المراجع التي عاد إليها « جرجي » في تأليفه رواية « شارل وعبد الرحمن » الخيالية !!

* * *

أولاً ••

جعل « جرجي » محور روايته على امرأة اسمها « لمباجة » ، وكان للمباجة هذه دور رئيسي في مسار الرواية وأحداثها ، وإذا عدنا الى مصادرنا العربية الاسلامية نجدها تقول :

تزعّم الكتب الافرنجية أن عثمان قد أسر في إحدى غزواته
اسمه اودو دوق أكويتانية ، وكانت رائعة الجمال ، فهمام بها
وروجها . وتسمى تلك الكتب ابنة اودو أسماء مختلفة :
وميرانسة ، مينين ، لامباجية^(١) ، وكذلك تسمى تلك الكتب
عثمان نفسه مونوسة ، أو مونوزا ، وتجعله من البربر .

وقالوا : فلما سكن عثمان الى زوجته ترك الغزو ، وأصبح
سلعه مع صهره اودو ، ونذيراً إليه بتحرك الجيوش الاسلامية
نحو بلاده ، فيقال : إن عبد الرحمن الغافقي أرسل الى عثمان من
علّاب عليه فقتله ، وقيل بل قتل في حدث آخر^(٢) ، « ومع أن الغالب
على هذه الرواية أنها موضوعة من أساسها ، فانها تدل على أن
عبد الرحمن الغافقي لم يكن غافلاً عن بعث الطلائع قبل أن قام
بهجومه الرئيسي^(٣) » .

لقد نسجت الروايات الأوربية الكنسية حول مونوسة أو هامما ،
ونحلت حولها تفاصيل لاستنتاج أمر ، أو بناء أمور اتخذتها فيما
بعد حقائق لا ريب فيها . وخلطت — كما جاء في تاريخ غزوات
العرب — بين مونوسة وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، أحد ولادة
الاندلس لمدة خمسة أشهر ، ابتدأت من شعبان سنة ١١٠ هـ ، كل
ذلك يجعل من مونوسة خرافة ، وعلى الخصوص اذا علمنا أن
مونوسة اسم لأرض ، ففي البيان المغرب لابن عذاري : إن والي

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص : ٨٧ .

(٢) الاسلام في الحوضين الشرقي والغربي ، ص : ١٢٨ .

(٣) دولة الاسلام في الاندلس ، ج : ١ ، ص : ٨١ - ٨٥ .

الاندلس غزا منوسه^(١) . وفي تاريخ ابن خلدون : غزا أرض مقوشة فافتتحها^(٢) .

ومما تقوله الرواية الأوربية الكنسية : أن رجلا من الجنس البربري اسمه « مونوس Munus » ترامت إليه من حدود ليبيا « افريقية » أخبار الظلم القاسي الذي كان يعانيه أبناء جنسه في هذه البلاد ، فصانع الفرنجة ، وصاهر أودو من أقطانية ، وأخذ يعمل على إيذاء العرب ، أعداء اسبانية ، ووثب بهم بالفعل ، وأصبح في حرب دائمة معهم ، ولكن أنصاره كانوا على خلاف متصل معه ، ولم ينهض عبد الرحمن الغافقي لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالي عشر حملات ، فنهض عبد الرحمن لمونوسة ، وتبعه ، ففر إلى خواتق الجبال ، وتخرج مركزه ، وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه ، وقبضوا على زوجته وأرسلوها إلى بلاط الخليفة . وتفيض الرواية كما نسجت وتخيّلها المراجع الأوربية الكنسية بعدها بذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى ، وخاصة أهل شرطانية ، وكيف أنه أحرق « أناباديوس » أسقفها بعد ذلك^(٣) .

ويمكن تقديم سؤال واحد تترك اجابته للقارىء ، ننهي به خرافة مونوسة « لمباجة » ، لقد نصّت الرواية الأوربية الكنسية

(١) البيان المغرب ، ج : ٢ ، ص : ٢٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج : ٤ ، ص : ٢٥٨ .

(٣) القصة في « فجر الاندلس » ، ص : ٢٥١ وما بعدها ، عن :

Isidoro Pocense : Chronicon C. 58

على أن المسلمين قبضوا على زوجة مونوسة ، وأرسلوها الى بلاط
الخليفة ، أي الى دمشق ، على بعد آلاف الأميال عن الأندلس ،
الآلاف الأميال عن أرض فرنسة ، مسرح أحداث رواية « جرجي » ،
وكيف رافقت مونوسة ، أي لمباجة في عرف « جرجي » الحملة مع
العافقي . لتعمل دساً وتخريباً ووقية ، مع أنها في بلاط الخليفة
بدمشق ، بحسب نص الرواية الأوربية الكنسية ؟!

ولنتفكر بعدها بخاتمة الخيال ، بعد ذكر أعمال العنف
والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن العافقي بالنصارى « وكيف
أنه أحرق أناباديوس أسقف شرطانية » ، فهل عُرِف المسلمون
بمثل هذه الأعمال على مرّ تاريخهم الطويل الواسع ، هذا التاريخ
الذي يشهد بعفوهم وبرحمتهم التي شملت الحيوان والنبات
فضلاً عن الإنسان^(١) ، حتى قال منصف من الأوربيين أنفسهم :
« ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب^(٢) » ؟!؟

إنه التعصّب الكنسي ، وصليبية العصور الوسطى الأوربية،
التي وقعت بالمتناقضات عندما نسجت من خيالها تاريخاً فافترت ،
ودسّست على تاريخنا عن قصد فامترت .

★ ★ ★

(١) جاء في وصية الصديق لجيش أسامة « .. ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ،
ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لماكلة .. »
(٢) القول للمؤرخ : « غوستاف لوبون » في كتابه : « حضارة العرب » .

ثانياً ..

وهذه بعض ملاحظتنا على الرواية « الزيدانية » ، التي نسجها خيال « جرجي » الخصب^(١) :

١ - عاد « جرجي » كما في روايته « فتح الاندلس » ليدس بين العرب والبربر ، وليتهم الأمراء العرب بعدم تفر بطهم في جند العرب ، فقال عن موسى بن نصير : « فأخذ حملة أكثرها من البربر » ، وهذا كلام مرفوض ، فموسى بن نصير لم يميز بين العرب والبربر ، ولكن قلة العرب في شمال افريقية عند الفتح مباشرة بالنسبة الى أهلها ، جعل قسماً كبيراً من الجند من البربر ، ودليل تقدير موسى لكل كفاءة بغض النظر عن جنس صاحبها أو عرقه ، تعيين طارق بن زياد ، وهو بربري ، قائدا لجند المسلمين وفيهم آلاف العرب .

ومن المضحك ، قول « جرجي » في صفحة ١٤ : « امتهان العرب يومئذ لغير العرب ، ولو كانوا مسلمين » ، فإذا فتشنا عن مرجع أو مصدر هذا الكلام لوجدناه « تاريخ التمدن الاسلامي » الذي هو من تأليف « جرجي » نفسه ، وأشار في نفس الصفحة على أن المرجع كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » ، « فجرجي » يورد أحكاماً ، وشواهد هذه الأحكام ، ومصادر هذه الدرر ، كتابه

(١) الملاحظات التي ندونها هنا ليست كل ما يقال ، أو يكتب ، أو ينتقد به « جرجي » في روايته « شارل وعبد الرحمن » ، سندون أهم النقاط ونترك الحديث المفصل الى كتابنا الذي نعهده عن « جرجي » ورواياته .

الذي قدّمه قبل هذه الروايات « تاريخ التمدن الاسلامي » ، وقد كرر هذا في ثلاثة مواضع في الصفحات : ١٤ ، ٤٢ ، ٤٩ •

٢ - يغلط « جرجي » على عادته بين كلمة عرب . وبربر ، ومسلمين ، في كل صفحات الكتاب ، ومثال ذلك صفحة : ٧ ، قوله : « ولم يذهب من فكر العرب فتح أوربة » ، وكلمة « مسلمين » هنا أصح تاريخياً من كلمة « عرب » ، فالعرب ما فكروا بتحرير أنفسهم من الفرس والرومان ، إلا بعد عقيدة ربانية غُرست في نفوسهم فغيّرتهم ، ووحدت صفوفهم ، وجمعتهم على قلب رجل واحد ، العرب ما أخذوا مكائنتهم اللائقة تحت الشمس ، إلا بعد أن أهلهم رسول الله ﷺ ، روحياً ، وفكرياً لفتح الدنيا •

٣ - في صفحة ٨ ، يركز « جرجي » على اغتصاب المسلمين للكنائس ، وجعل المرجع لهذا « رينو عن أيزيدور » ويستمر في ذلك الى نهاية الرواية ، مع أنه يورد في الصفحات : ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٦٨ ما يناقض هذا على لسان سألما أم مريم ، ولقد ذكرنا في هذا الكتاب أنه إن كان المسلمون قد داهموا ديراً أو كنيسة في سهول فرنسة ، فذلك لا يقاف المقاومة المنطلقة منه ، فقد كانت بعض الأديرة والكنائس حصوناً للمقاومة ، واعترف « جرجي » بذلك في صفحة : ١٦٤ •

٤ - قال « جرجي » في صفحة ٩ : « وكان عبد الرحمن قد أدرك اختلال أمورهم ، أو جاءه البشير بذلك ، فعزم على فتح بلادهم » ، وهذا كلام مرفوض ، لأن الفتح الاسلامي خطة مدروسة ذكرها « جرجي » أيضاً في صفحة ٦ : « وقد عزم على

مواصلة الفتح في بلاد أوربة حتى يعود الى الشام من طريق القسطنطينية » ، فالفتح قائم مخطط له ، ولو لم تختل أمورهم ، وقد كرر ذلك في صفحة : ١٩٦ ، وركز على ما سماه « جشع المسلمين » صفحة : ٣٢٣ •

٥ - جعل « جرجي » في صفحة ١٣ فصلا كاملا عن : [الغنائم والسبايا] عند المسلمين ، وبدلا من التصريح بأن الغنائم والسبايا إن وجدت ، هي معاملة بالمثل في عثرف ذلك العصر ، بدلا من التصريح بهذا ، أخذ يلمح أنها هدف وغاية ، وذكر أن أمراء الأندلس (صفحة ٣٦) معظمهم من أهل المطامع ، وقد كرر ذلك صفحة : ١٤٧ •

٦ - وجعل « جرجي » من الشخصيات الرئيسة في الرواية فتاة اسمها « مريم » وعلى عادته في كل رواية له ، جعل منها مثالا للجمال ، قال عنها : « فتاة لم ير الراؤون أجمل منها » صفحة ١٦ ، ناهيك عن كلمات الغرام في رواية تحمل شعار « تاريخ الاسلام ! » ، فلواعج الغرام ، التي يكررها في كل رواية له ، وردت هنا على سبيل المثال في الصفحات : ٣٠ ، ٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٣٨ ، وقتيل هوالك ، وردت في الصفحات : ٩٠ ، ١٠٢ ، ٣٢٨ ، وهذه بعض المقاطع التي تدون تاريخ الاسلام ، كما يكتبه « جرجي » :

— في صفحة ١٧ : « أما الفتاة^(١) فكانت واقفة بجانبها ، وعليها لباس أسود مثل لباسها ، وقد أسندت يدها الى كتف المرأة

(١) يصف هنا « مريم » عندما رآها هانيء ، وبمثل هذا الوصف يكتب تاريخ الاسلام !!!

.. وهي مكشوفة الزندين الى الكوع ، وقد التف زنداها التفافاً مدماً ، وكانت طويلة القامة على اعتدال ورشاقة ، وقد بدت غضة ، وحياتها الحياة والنشاط ، ويحبها الرائي — أول الأمر — في الخامسة والعشرين ، وهي في الحقيقة دون العشرين ، سمراء اللون ، سوداء العينين ، كحلاء الجفون ، حادة البصر مع وداعة ورقة .. بدت وقفتها على الصحة والقوة معاً ، ويتجلى فوق ذلك كله لطف سائي يسحر الأبواب ، وكان ثوبها الأسود بسيطاً ، وقد انفتح الرداء من أعلى الصدر فبدا عنقها ، وفيه مظاهر الصحة والقوة بامتلائه واستدارته .. »

— وفي صفحة ٢٣ : « ولكنه^(١) كان مشغول الخاطر بشيء لا يعرفه غير الذي يعانيه — وهو الحب — ومن غريب أمر الحب أنه يقع على الناس وقوع السبات من حيث لا يعلمون ، وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة ، فلا تكاد تلتقي العين بالعين حتى تجيش العواطف ، وتتجاذب القلوب تجاذباً لا سبيل الى دفعه ، ولا يحدث ذلك عند كل نظرة ، ولا في كل انسان ، وانما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب ، فاذا تفاهمت العينان ، استيقظ القلبان وتجادبا كأنهما كانا على ميعاد ثم تاها »

— وفي الصفحة ٣٠ : « خشي « هانيء » أن يكون في حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها « مريم » وقد ازداد تعلقاً بها بعدما لاحظته من رغبتها فيه ، وأحس أنها تحبه حباً شديداً ، فاغتنم

(١) يعني هانئا ، عندما (جاش في فؤاده من عوامل الغرام ، وما غشي بصيرته من عواطف الشباب) عندما رأى مريم .

مرسه اشتغال الامير بالحديث مع المرأة ، ودنا من الفتاة وقد أراد أن يسمع حديثها ويستطلع أمرها ، فقال وصوته يدل على هيامه : « ما اسمك يا فتاة ؟ » ، فأجابته بصوت دل على لواعج الحب ، وبلسان عربي فصيح : « اسمي مريم » فأعجبته غنة صوتها ، وزاد افتتاحه بها لثغة في لسانها تنطق بها الراء غيناً ، فكأنه سمعها تقول : « اسمي مغيم » •

— في الصفحة ٣٢ : « ونظر (هانيء) الى مريم ، فرأى عينيها الجذابتين وقد زادها التفكير والاطراق هيبة ، فسبح الخالق لذلك الصنع العجيب » •

— وفي الصفحة ٨٢ العجب العجائب في « روايات تاريخ الاسلام » : « فأعجبه ذلك العتاب واستدل من ورائه على ماله من المنزلة ، عند تلك الحورية ربة الجمال ، وقد كان يعلم أن بينه وبينها فارقاً كبيراً ، ولكنه كان يطمع في حبها •• وكان يقنعه من ذلك الحب أن يسمع مثل تلك العبارة ، فهو ممن يسمونهم « أذئاب العشاق » لأن العشاق ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذي يملأ القلبين ، وعويشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته باقة من الأزهار أو عقداً من الجواهر ، ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له فيما وراء ذلك ، و « ذنب العشاق » وهمه أن يخدم معشوقته خدمة تروقها ، كإيصال كتاب ، أو ابتياع بعض حاجات الطعام أو نحو ذلك » •

كل هذا في روايات تاريخ « الاسلام » فأين التاريخ وأين الاسلام ؟

— ويطول الحديث عن « لواعج الغرام » في صفحة ٣٣٨ ،
ونكتفي بما تقدم ، وترك الشرح الوافي لكتابنا القادم إن شاء الله
وهو « جرجي في الميزان » .

٧ -- كرر « جرجي » كلمة « نهب » بحق المسلمين ، في
الصفحات : ٢١ ، ٢٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ وفي هذا ما يغني عن التعليق .
٨ — كما بالغ « جرجي » في اظهار البربر على أنهم يسعون
الى الغنيمة ليس غير ، قال في صفحة ٣٨ : « أكثرهم جاؤوا للنهب
والسلب ، وخصوصا البرابرة ومن على شاكلتهم ، فهؤلاء لا يفهمون
معنى الجهاد أو الفتح ، ولا يعرفون ماهو الاسلام ، لأنهم إنما
اتموا إليه رغبة في الغنائم » .

وتراه يسمي البربر « البرابرة » في الصفحات : ٢٨ ، ٣٢٥ ،
٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ . وشتان بين المعنيين ، بين قبائل تسكن الأطلس
والمغرب الأقصى ، وبين معنى « البرابرة » التي أطلقت على القبائل
الهمجية التي جاءت أوربة فدمرتها ، وأبادت مدناً وقرى ، وفتكت
بشعوب بأسرها ، وشمل أذاها الانسان والحيوان والنبات ، حتى
الجماد متمثلاً في هدم الآثار الرومانية أينما حلوا ، فسُمِّيت هذه
القبائل لهمجيتها وبدائيتها ووحشيتها « البرابرة » وهم قبائل :
الهون والجرمان والفندال ... فشتان بين المعنيين !!

٩ — عبد الرحمن الغافقي ، البطل المسلم ، الملتزم باسلامه ،
والذي أوصل الاسلام الى قلب فرنسة ، جعل له « جرجي » في
روايته « شارل وعبد الرحمن » [خباء من النساء] صفحة ٥٠ ،
وذلك بدلا من اظهار مواهبه القيادية وتفانيه في نشر الاسلام ،

وهذا يعني نشر الاخاء والمساواة والحضارة الانسانية العالمية في كل معانيها ، كما جعله يهيم (في صفحة ٥٧) في حب فتاة ، وله قهرمانه مشرفة على خباء نسائه صفحة ٦٨ ، وكذلك صفحة ٧٤ ، حيث يجعل القهرمانه السيدة المتنفذة ، تولى وتعزل حتى الخلفاء ، طبعاً دون ذكر أمثلة من التاريخ كعاداته .

وفي الصفحتين ٧٤ و ٧٩ يجعل للامير هانىء خباء نساء أيضاً ، وهانىء هو الشخصية الثانية بعد الغافقي ، ثم يجعل لكل أمير « خباءه وجواريه » في الصفحات : ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ٢٦٥ . وفي الصفحة : ٩٥ بالذات يجعل للقائد المسلم عبد الرحمن الغافقي [عشرات من النساء في خبائه] ، فهل هذه حقائق ؟

ومن منطلق الغيرة على هذا التاريخ المجيد ، والتراث الغالي نقول : احموا تاريخكم ، وسيجوا حوله بسياج متين ، فالعابثون به كثر ، والذين يهدفون الى تشويهه وراءهم قوى معادية لدينكم وتاريخكم وتراثكم وذاتيتكم

هل تسمح أمة من الأمم في هذه الدنيا ، ماضيا وحاضرا ، أن يقوم قلم ما — ومهما كان شأنه — بتشويه سيرة أبطالها ؟ فلماذا نحن بالذات هانت علينا أبطالنا ، حتى إننا كدنا نرى سيرتهم مشوهة ، بل صرنا نراها ممسوخة مفترى عليها ، مطموسة ملامحها الرائعة ، ثم لا نبالي !!؟

تاريخ الاسلام وحضارته ، العامل الاول لشعور العزة والكرامة في أمتنا ، لشعور الفكر الموحد ، والعقيدة المثلى التي فتحت نصف العالم في نصف قرن ، به سُدنا ، وبه عُرِفنا بمكانتنا

السامية بين الأمم ، فلصالح من يتم التشويه ، وجعل تاريخنا سيرة
جوار وغنائم وأخية وقهرمانات ؟!؟

ألا فاحموا تاريخكم ، تحموا أمتكم من الضياع •

١٠ - يكرر « جرجي » في روايته العبارات التالية :

ظننت ، ودلتها قلبها ، قالت في نفسها ، أحس ، تذكر في
نفسه ، تصور ، فأسر في نفسه ، أضمرت ، لسان حالها يقول ،
تبادر إلى ذهنه ، خيل إليه •• كما في الصفحات : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٧٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ••
وبسبب هذا الخيال الخصب ، والفكر الثاقب ، تراه يقرأ ويكتب
الأفكار ، وما يجول في نفوس الناس ، وما تشعر به قلوبهم ، لذلك
فإنه يكتب رسائل متبادلة بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل
لا أصل لها •

١١ - ذكر « جرجي » أن المسلمين أينما ساروا في فرنسا
« غاليا » ، وجدوا قرى وبيوتاً أهلها تركوها ، كما في صفحة ١١٢ ،
والثابت تاريخياً أن المسلمين لم يؤذوا ، ولم يصيبوا المدنيين بسوء
مطلقاً ، فهجر البيوت وترك القرى صورة عرفت أوروبة عند مجيء
الجرمان والهون والفندال •• أولئك الذين حصدوا كل شيء في
زحفهم ، أما المسلمون ، وباعتراف المؤرخين الأسبان مثلاً ، أن
بلادهم شهدت قمة مجدها ورقياً وتعلمها وإنسانيتها عند الفتح
الاسلامي ، وكانت شعوب فرنسا تتمنى انتصار المسلمين ليصلوا
إلى ما وصلت إليه أسبانية من تقدم •

ولسوء طويّة « جرجي » ، فقد وصف المسلمين في صفحة ١١٣ ، بأنهم « ساروا كأنهم بحر يتلاطم بالأمواج » بينما الفرنجة « كثيرون » ، والثابت تاريخياً أن المسلمين كانوا سبعين ألفاً ، والفرنجة هم البحر المتلاطم بالأمواج ، فكأنه لا يريد التماس عذر لانسحاب المسلمين في بواتيه ، فهم بحر يتلاطم بالأمواج ، وعدوهم أقل منهم عدداً ، وذلك ليؤكد الفخر للفرنجة بالنصر .

١٢ - مسرح الرواية ، والقسم الأكبر من أحداثها في الأديرة ، ويكرر تقبيل يد الرهبان للتبرّك بهم ، ويذكر حقوقهم من الاحترام والتقدير ٠٠٠ كما في الصفحات : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٨٧ ، ٢٧٩ ٠٠ بينما ذكر القرآن العظيم مرة واحدة صفحة ٣٢٦ ، وكأنه كتاب عادي ، لا علاقة للفتاحين به ، فقال « قرآن » هكذا ، لا كريم ولا عظيم ٠٠ ومتى ذكره ؟ ذكر القرآن الكريم قبيل المعركة مباشرة ، لقد تليت آياته ، ولم تغر المسلمين شيئاً ، فلم ينتصروا في بواتيه ، وفي هذا ما فيه من الدس لتحقير شأن القرآن المجيد ، وإظهار عدم جدواه في المواقف الصعبة .

١٣ - يقول « جرجي » في صفحة ١٦٢ : « إن امرأة شاهدت في الدير شاباً مجنوناً » سكنه شيطان » ، فسألت عن قصته فقال لها رئيس الدير : « اعلمي يا ابنتي أن هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تجندوا لمحاربة أولئك العرب ، حين بلغهم إقدامهم على فتح هذه البلاد ، وكانت له والدّة لا يعرف من الأهل سواها ، ولا هي ترجو سواه ، فتركها في بيتها وسار الى الحرب ، فاتفق في أثناء غيابه أن جاء المسلمون الى ذلك البلد ، ونهبوا بيت المرأة ، وساقوها في

جملة السبايا الى قلعته في تلك المنطقة ، فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه بما حدث لأمه ، ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق ، فأطل على القلعة وكانت موصدة ، فأشرف عليه أحد المسلمين من فوق السور وسأله عن غرضه ، فقال له : أطلب والدتي فانها أسيرة عندكم ، فأجابوه : لا نرد لك أمك إلا إذا أعطيتنا الجواد الذي تركبه ، وإلا فاننا نذبحها أمام عينيك ، فغضب - واسمه داتوس - لذلك غضبا شديدا ، وقال لهم : لا أعطيكم ، وافعلوا بوالدتي ما تشاؤون ، قال ذلك وهو يظن أنهم يخوفونه بتهديده بقتلها ، وانهم لا ينوون اعدامها فعلا ، ولكنه مالبث أن رآهم احتزوا رأسها ورموه إليه وهم يقولون : هذه والدتك فأليك هي ، فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى رأسه ، وغاب عن رشده ، ولما عجز عن الوصول الى القاتلين لتحصنهم وراء الأسوار ، جعل يلطم وجهه ويصفق ويكي ويركض فرسه يمينا وشمالا كالمجنون ، ثم انقطع عن أصحابه وأقام عندنا » .

هذا ما أراده « جرجي » على لسان رئيس الدير ، فالحمد لله حصص الحق ، إنها فرية ودسيمة ينفيا ، ويدحضها أخلاق المسلمين الفاتحين بالرحمة والانسانية^(١) .

والملاحظ لمسار القصة يلمس كذبها بقرينة ودليل :

(١) قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد : « لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة » . هذه هي اخلاق الفاتحين المسلمين ، وهذا من دستور معاملتهم للشعوب ، لا كما يدعي ويتخيل « جرجي » على لسان راهبه رئيس الدير .

١ - المسلمون جاؤوا الى بلد ، ما اسمها ؟ أين تقع ؟ بلد
مجهولة ؟

٢ - كلمة « نهبوا » تدل على نفسية المؤلف الحاقدة على
المسلمين .

٣ - عبارة « تلك المنطقة » تدل على الضياع ، ما اسم
المنطقة ؟ لا يدري أحد حتى ولا « جرجي » ولا رئيس الدير .

٤ - المسلمون في « قلعة » خلف أسوارها ، هل للمسلمين
قلاع أو حصون قرب بواتيه في أرض فرنسة !؟

٥ - وصل الجندي الافرنجي فأشرف عليه - من وراء
الجدر - جندي مسلم ، كيف أحس به ، ومن أعلمه بقدومه ؟
وبأي لغة تفاهما ؟ بالعربية ؟ أم بالفرنسية ؟ أم بواسطة ترجمان ؟!!؟

٦ - الجندي المسلم يطمع بالجواد ، يطمع بغنيمة ، هذه
نذالة ، بينما الجندي الافرنجي شهم لا يعطي جواده ، فعليه
سيحارب المسلمين ، وما الذي يمنع المسلمين من أن يخرجوا إليه ،
وهو في قلة مع رفاقه ليأخذوا الجواد وتبقى الأم أيضا معهم ؟!!؟

٧ - أم الجندي الافرنجي سبية بحسب قول « جرجي »
على لسان « رئيس الدير » موجودة مع المسلمين ، لماذا يذبحونها
إن لم يعطهم ابنها الجواد ، ماذا خسروا بعدم اعطائهم الجواد
لتذبح وتعاقب !

٨ - اظهرت الدسياسة أن المسلمين أهل ظلم وعسف
ووحشية ، وظهرت الجندي الافرنجي بالجرأة والحمية والغضب
للحق ، والهياج للعدالة ، فهل هذا صحيح ؟

هذه ملاحظات ثمان ، تغنينا عن التعليق ، ففي النفس ألم ،
وفي القلب غصة على تاريخنا المجيد كيف يشوه ، وعلى رجالاته
كيف يُساء إليهم أمام أعيننا ونحن غير عابئين أو مبالين !
١٤ - من الخطوط العامة للرواية :

هانئ (العربي) قائد الفرسان - وهو شخصية خيالية -
أحب ربة الحسن والجمال والأنوثة مريم ، أو « مقيم » بحسب
قول « جرجي » ، نافسه على حبها بسطام (البربري) - وهو
شخصية خيالية أيضاً - فتقتل مريم بسطاماً لتتعم بحبيبها هانئ
(العربي) ، ثم ينافسه في حبها القائد العظيم عبد الرحمن الغافقي !!
كما في الصفحات : ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٠٠

ويجعل (جرجي) لمباجة : [أدرى بجيش المسلمين من عبد
الرحمن] هكذا أرادها ، وهي نصرانية تكيد للمسلمين ، وهي
عندهم في معسكرهم لا يدرون طويتها ، كما في الصفحات : ٥١ ،
٥٢ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

لقد جعل « جرجي » التنافس بين العرب والبربر يمثله التنافس
بين هانئ وبسطام ، ثم جعل الغافقي يخفق قلبه لفتاة ، فتشغله عن
أمر الفتح والجيش كله .

وكل هذا مغالطات غنية عن التعليق .

١٥ - يقول « جرجي » في نهاية الرواية ، فرّ الجيش المسلم
من المعركة ، فبينما الشخصيتان الخياليتان هانئ ومريم لم يفرا ،
لا يليق بهما ذلك ، فقررا الموت معاً طواعية : « الموت معك حياة

يا حبيبي .. يا حبيبي .. آه ما ألد هذا اللفظ ، وكم كنت أتلذذ بتكراره في خلوتي ، وأتحرر على سماعه من فمك » ، (صفحة: ٣٤٢) .
لقد عزما على النزول في البحر ليغرقا ، ويصبحا طعاماً للأسماك ، ولكن هائثاً لما فرغت مريم من قولها أشار بعينه الى جسمها الغض ، وقال لها : « أليس غبناً أن تذهب هذه الأعضاء طعاماً لأسماك البحر ؟ فقطعت كلامه قائلة : ذلك خير لها من أن يفترسها وحوش البر الذين يسمون أنفسهم بني الإنسان .. عجل يا هانيء قبل أن يغلب علينا حب البقاء .. » ، [صفحة : ٣٤٣] .
« فمد يديه ومدت يديها ، وتخاصرا من جانب ، وتماسكا من الجانب الآخر .. ومشيا على الرمل حتى غرقت أقدامهما في الماء ، فأحسا برده وبانزلاق الرمل تحت الأخمصين ، وكانا كلما انغمرا في الماء ازدادا تعانقا وازدادا تجاذبا حتى أصبحا جسماً واحداً ، وغطسا في الماء وكل منهما يتلذذ بذكر اسم الآخر ، وبعد دقيقة بدا بعض الرأسين ، والشعر سابح على سطح الماء ، ثم غطسا إلى قاع النهر ، ولم يعد يعلم مصيرهما إلا الله .. » ، [صفحة: ٣٤٣] .
غريب عجيب .. شخصان غرقا الى قاع النهر « ولم يعد يعلم مصيرهما إلا الله » ؟! ومع قناعتنا بكذب الرواية كلها ، القناعة الكاملة ، فنحن تناقش ما ورد كرواية بين يدي الناس ، فنقول تعليقا على نهاية وختام الرواية كما جعلها « جرجي » :

كل قارئ مهما كانت ثقافته يعلم مصيرهما ، « غطسا الى قاع النهر » ما هو الاحتمال الثاني غير الموت بعد الغرق والالتحار؟! أمثل هذه الغراميات والترهات يكتب تاريخ الاسلام؟!

في حادثة انتحار هانيء ومريم مغالطة واضحة ، فإن الثابت علمياً أن المنتحر يقدم على الانتحار ، ولكنه عندما يشعر بالألم أو بالخطر المحتم فإنه يستنجد ويحاول التخلص مما أقدم عليه ، فعجباً كيف مضى الاثنان متخاصرين الى حتفهما ؟ إنها الروح الروائية التي تعبت بكل القيم •

إن فكرة الانتحار نفسها ما هي إلا من اختراع الكاتب ليقرر فكرة ضعف الايمان عند هانيء والعرب بشكل عام ، فإذا أثبت هذا الأمر كحقيقة واقعة أثبت بطلان فكرة الجهاد والفتح لغاية انسانية شريفة ، ليقنعنا أن الفاتحين ما قاموا إلا في سبيل السلب والنهب ، ويظهر ذلك إجلاله لأطراف الرواية الأخرى مثل شارل وأودو ••

★ بعد هذه المناقشة لرواية « جرجي زيدان » : (شارل وعبد الرحمن) والتي هي جزء من مثيلاتها في سلسلة : (روايات تاريخ الاسلام) ، نقول والله يشهد الاخلاص في القول : « إن الأمة التي تريد البقاء ، تحمي تاريخها بسياج متين من الحراسة » ، نقولها مخلصين ، علّ يدأ مسؤولية تطهّر هذا التاريخ من الدس والتشويه ، نقولها لعل قلباً غيوراً يدفعه نوره الى حماية الجيل من افتراءات المدلّسين :

• « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » ، الحاقة : ١٢ •

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً •

* * *

ولاية الأندلس

من الفتح عام : ٩٢ هـ حتى وصول عبد الرحمن بن معاوية « الداخل »
عام : ١٣٨ هـ (١) .

- طارق بن زياد ٩٢ هـ
- أبو عبد الرحمن موسى بن نصير ٩٤ هـ
- عبد العزيز بن موسى أواخر سنة ٩٥ هـ
- أيوب بن حبيب اللخمي ٩٧ هـ
- الحرث بن عبد الرحمن الثقفي ٩٨ هـ
- السمع بن مالك الخولاني رمضان ١٠٠ هـ
- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي « المرة الأولى » ١٠٢ هـ
- عنيسة بن سنجيم الكلبي ١٠٥ هـ
- عذرة بن عبد الله الفهري ١٠٧ هـ
- يحيى بن سلمة الكلبي شوال ١٠٧ هـ
- حذيفة بن الأحوض الأشجعي « حكم ستة أشهر » ١١٠ هـ
- عثمان بن أبي نسعة الخثعمي شعبان ١١٠ هـ
- الهيثم بن عبيد الكناني المحرم ١١١ هـ
- محمد بن عبد الملك الأشجعي « شهران » ١١٢ هـ
- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي « للمرة الثانية » ١١٢ هـ
- عبد الملك بن قطن بن ثقل بن عبد الله الفهري ١١٤ هـ
- عقبة بن الحجاج السلولي القيسي ١١٦ هـ
- عبد الملك بن قطن الفهري « للمرة الثانية » ١٢٢ هـ
- بلج بن بشر القشيري ١٢٣ هـ
- ثعلبة بن سلامة العاملي ١٢٤ هـ
- الحسام بن ضرار الكلبي أبو الخطار رجب ١٢٥ هـ
- يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ١٣٠ هـ
- ابن نافع الفهري ١٣٠ هـ
- واصل عبد الرحمن بن معاوية إلى بلاد الأندلس ١٣٨ هـ

(١) معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، لزماربور ، مطبعة
جامعة فؤاد الاول عام : ١٩٥١ ، صفحة : ٨٥ .

المحتوى

صفحة

٥

تصدير

١١

المسلمون في فرنسا

٢٠

قائد بلاط الشهداء (عبد الرحمن الغافقي)

٢٤

المسلمون قبيل المعركة

٢٨

الفرنجة وشارل مارتل

٣١

المعركة .. بلاط الشهداء

٣٦

نتائج المعركة

٤٦

المسلمون في فرنسا بعد بلاط الشهداء

٥٤

خاتمة : خرافة مونوسة وشارل وعبد الرحمن

٧٦

ولاية الأندلس (٩٢ - ١٣٨ هـ)

للمؤلف

- ١ - الإسلام في فقص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)
- ٢ - من ضييع القرآن ؟
- ٣ - الإنسان بين العلم والدين
- ٤ - هارون الرشيد
- ٥ - غريزة .. أم تقدير إلهي ؟
- ٦ - آراء يهدمها الإسلام
- ٧ - الإسلام وحركات التحرر العربية
- ٨ - عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي
- ٩ - الهجرة « حدث غير مجرى التاريخ »
- ١٠ - جرجي زيدان في الميزان

سلسلة «المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

- ١ - القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص
- ٢ - اليرموك بقيادة خالد بن الوليد
- ٣ - نهاوند بقيادة النعمان بن مقرن المزني
- ٤ - ذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
- ٥ - فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد
- ٦ - بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي
- ٧ - فتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات
- ٨ - الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين
- ٩ - الأرك بقيادة المنصور يعقوب الموحدي
- ١٠ - العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي
- ١١ - مصرع غرناطة « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر »

غزوات الرسول الأعظم

- بدر الكبرى : رمضان ٢ هـ - كانون الثاني ٦٢٤ م
غزوة أحد : شوال ٣ هـ - كانون الثاني ٦٢٥ م
غزوة الخندق : شوال ٥ هـ - شباط ٦٢٧ م
صلح الحديبية : ذي القعدة ٦ هـ - شباط ٦٢٨ م
غزوة خيبر : المحرم ٧ هـ - آب ٦٢٨ م
غزوة مؤتة : جمادى الأولى ٨ هـ - إيلول ٦٢٩ م
فتح مكة : رمضان ٨ هـ - كانون الثاني ٦٣٠ م
حنين والطائف : شوال ٨ هـ - شباط ٦٣٠ م
غزوة تبوك : رجب ٩ هـ - تشرين الأول ٦٣٠ م
«حروب الردة» : «في خلافة الصديق سنة ١١ هـ»

